ليس للفقير أن يحلم

مجموعة قصصية

بكر أبو بكر

اصدار المكتب الاعلامي للدراسات والتوثيق/ بيروت - لبنان
تمت الطباعة في مطبعة شمص

80 صفحة

ليس للفقير أن يحلم

بكر أبو بكر

ليس للفقير أن يحلم

مجموعة قصصية

الكتاب: ليس للفقير أن يحلم - مجموعة قصصية
الكاتب: بكر أبوبكر
المتابعة والاخراج: المكتب الاعلامي للدراسات والتوثيق
هاتف:٠٠٩٦١٧٧٥٥١٤٣
فاكس:٠٠٩٦١٧٧٥٥١٤٢
رسم الغلاف: محمد سرور
الطباعة: مطبعة شمص
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٠٧٧٣٥
بيروت - لبنان - الطبعة الاولى ٢٠١٠
جميع الحقوق محفوظة

(صن تسو) والقائد المعقد.

في الأساطير الصينية القديمة كان هناك أحد القادة العسكريين ممن وصلوا إلى موقعهم بطرق التفافية عبر الغدر والاحتيال والنصب على عباد الله من جهة، وبطرق الامتهان والتذلل والتزلف للإمبراطور وحاشيته من جهة ثانية.

وهذا القائد العسكري المدعو (سونغ هوا) الشهير برذالته في التاريخ الصيني القديم كان حين تسلم لواء أحد الجيوش بناء على خبرته بالتزلف والانحناء إلى حد الانبطاح، وذلك أثناء حرب الممالك الثلاث في التاريخ الصيني القديم، أصبح لا ينفك يجرد الحملة تلو الأخرى بسبب ودون سبب ضد الممالك الأخرى، وضد رعايا المملكة التي هو منها مقاطعة إثر مقاطعة محاولا إثبات ذاته، وإظهار شخصيته كبطل قومي.

ولكن حملاته كانت للأسف ذات أثر غير مذكور، لأنها وإن حازت على النفخ الإعلامي من طرف لفيف صغير استفاد من صعوده فإنها منيت بالهزائم ، وتسبب في إلحاق الظلم بأبناء المملكة التي يعمل تحت لوائها ، حتى ضج الكثيرون من أبناء المملكة وتداعوا إلى المدينة المحرمة حيث قصر الإمبراطور.

وبعد انتظار دام أياما طوالا استطاع الحضور الذي ظل يتكاثر أن يرى قائد حرس الإمبراطور ويقدم ظلامته، وانسحب الناس وبقيت الأمور على ما هي عليه، بل ازدادت سوءا، حيث أن إحساس القائد (سونغ) بالمهانة الإضافية نتيجة شكاية الناس، وبالنقص نتيجة أسلوب وصوله إلى الموقع ، وبالاضطهاد لعدم تحقيقه أي شيء رغم قناعته بالعكس ولّد لديه قدرا هائلا من الكراهية والحقد على الآخرين.

يقول التاريخ الصيني القديم في كتاب (عندما أشرقت الإمبراطورية) للمؤلف (تسي يانغ) أن سنوات تسلط القائد المذكور على أحد قطاعات الجيش وعلى مقاطعة من مقاطعات الصين لاحقا قد ولّد لدى الناس جبلا من الضيق والتأزم وحالة من الإحباط وانزعاجا غير مسبوق.

وولّدت هذه السنوات لدى القائد (سونغ) مزيدا من الشعور بالنقص والدونية وفقدان الشرف.وبالتالي التجبر بالناس وقهرهم واستمرار إيذائهم، ومحاولة فرض نفسه كبطل عبر تلميع صورته .

كان سونغ يتردد كثيرا ويطيل النظر في المرآة يحرك من ياقته ذات اليمين وذات الشمال ويغيّر قصة شعره ومفرق رأسه .... كما يتردد في طريقة لباسه ولونه وطوله حتى عافه العسكر فعبد المرآة.

تفنن في جمع النفيس والغالي من المرايا ، في كل ركن وزاوية مرآة، في كل غرف المنزل مرايا، في موقعه بالجيش، في جيبه في سرج حصانه، ولم يجد الناس حيلة يعاقبون فيها هذا الرجل إلا أن قاموا بالتآمر مع صناع المرايا بالتوقف عن صنعها مقابل ثمن مضاعف يجمع من الناس جميعا الذين قدموا أموالهم عن طيب خاطر، حتى أسميت هذه الأموال بضريبة المرآة.

عزت المرايا حينها على الكثيرين وهو أولهم بالطبع، فأصدر فرمانا في مقاطعة (لي) التي حكمها ضمن الإمبراطورية بمعاقبة صناع المرايا أو عودتهم لصنعها ولم يرتدع أحد، ولم ينفذ أمره أحد رغم حملات الإغارة المتكررة من جنوده على المحال وتهديد وضرب أصحابها.

قامت في الصين حرب أطلق عليها حرب المرايا قادها القائد العسكري (سونغ هوا) ضد المقاطعات القريبة حيث كان يغزو الأسواق والمحلات ويجمع ما فيها من مرايا ويعلقها في كافة أرجاء قصره الشاهق.

لجأ الناس إلى حكيم الصين الشهير (صن تسو) متسائلين كيف السبيل إلى رد الظلم وكيف السبيل إلى التخلص من المريض هذا المعجب بذاته والمتسلط، والمليء بشعور النقص والدونية التي تملي عليه ما يقوم به، فقال لهم أمهلوني ثلاثة أيام .

انطلق الحكيم إلى صومعته في أحد الجبال القريبة واعتكف يفكر... لا سيما والسنوات للناس سنوات جدب وخراب تلاقت مع ظلم وانحطاط من قائد عسكري تحول إلى حاكم

فاسد طاغية مليء بالعقد...

مر على الحكيم صن تسو ثعلب ورآه متفكرا فقال الثعلب بضحكة خبيثة: مالي أراك مهموما يا أبا الحكم؟ نظر (صن) إليه ولم تفارق وجهه مسحة الجدية والتأمل فظل صامتا، ومر به الغراب فلم يطق النظر في وجهه، فطار الغراب مغموما، ومر به طائر اللقلق فلم يجسر على الحديث معه.

تجاسر الماعز الجبلي على الكلام وهز الحكيم بقرونه فقال (صن تسو) وكأنه أفاق من غفوة أو سنة نوم: ماذا تريد؟ ثم أردف قاطعا تأمله: كيف السبيل لعلاج مرضى النقص يا أيها الحيوان الجميل؟

فقال الماعز: لهذا جئتك.

وكان صن تسو مشهورا بالحديث مع الطيور والحيوانات والنباتات حيث يعتقد ومذهبه أنها ذات أرواح ، وكان يحقق الكثير من حكمه نتيجة ذلك ويعلن أن أصدقاءه الحيوانات أو الطيور أو النباتات قد أشاروا عليه بكذا وكذا، وفي هذا الشأن كان لحكمة الماعز الجبلي الدور الأساس.

أعلن في البلاد أن مرآة ذهبية فائقة الجمال والتصور، طويلة عريضة يصل حجمها ثلاث مرات حجم الإنسان العادي، توجد عند راهب متنسك في أعلى جبال (شيئين).

وأعلن انها مرآة تحقق المعجزات وتطلق السحر وتحيل القبيح إلى جميل والشايب إلى شاب والمريض إلى سليم، و التافه إلى زعيم والساقط إلى قائد، والخسيس إلى بطل.

وتناقل الناس في مقاطعة (لي) التي يحكمها (سونغ هوا) الخبر كالنار في الهشيم حتى وصل إلى مسامع القائد الهمام ماسك الزمام ، وكما هو القول العربي (لم يكذب خبرا) فقام بتجريد حملة عسكرية لصعود الجبل.

كان المكان بعيدا والمسافة شاقة... والجبل من أعلى جبال الصين حتى تساقط في الحملة الآلاف من الجند الذين قادهم وهو يمنّي النفس بالمرآة.... وبالتحول في نظر المرآة ونظر الناس من خسيس إلى بطل ومن تافه إلى زعيم ومن وضيع إلى عليم....

لم تثنه الصعاب وواصل المسير وواصل الصعود مع بضع عشرات من أفراد جيشه المتهالك المتساقط حتى وصل بعد أيام وليال طويلة إلى قمة الجبل... وما أن اقتحم منزل الراهب حتى تفاجأ بالمرآة العظيمة في وسط البيت، مرآة اسطوانية كالعمود وسط البيت

العالي يلتف حولها فيرى نفسه.
ضحك عاليا وضحك طويلا وأمل أن عهد البطولة وصورة الزعامة الحقيقية قد اقترب لا سيما والمرآة أصبحت بين يديه.

في قصره المنيف اتخذت المرآة موقعا لائقا ولكنها أصابت القائد بالاكتئاب حتى مات، لماذا؟

يسرد لنا كتاب (عندما أشرقت الامبراطورية) أن الحكيم (صن تسو) كان قد استمع لحكمة الماعز ونقلها وطبقها فطلب من الصناع أن يصنعوا مرآة بالمواصفات المذكورة ووضع داخل الاسطوانة عبر ممر سري الماعز الجبلي.

وبطريقة سحرية كان كلما نظر القائد إلى نفسه في المرآة يرى ماعزا جبليا بملابس وياقة، إذا تحرك شمالا تحرك الآخر يمينا والعكس بالعكس كما هي الحال في النظر للمرآة.

وعندما كان (سونغ) ينظر بوجود أناس آخرين كان يرى نفسه مع الناس. ولم يستطع أن يقول لأحد أنه عندما ينظر في المرآة الاسطوانية لوحده لا يرى إلا ماعزا بلباس قائد عسكري .

أبت عليه كرامته المزعومة أن يعترف بذلك فيتضاحك عليه الناس ويسخرون منه، فتكسرت الصورة وانغلق الباب وذابت فيه الروح وتنامت فيه الحسرة فاكتأب وقضى.

كتبت في رام الله في ١/ ٩/ ٢٠٠٥

ألا تعلم من هذا ؟

كان وليد موظفاً في شركة عقارات كبرى ، وفي الشركات الكبرى لا يكون للموظفين دور سوى إطاعة الأوامر وتنفيذ التعليمات ، لأن التقسيم الإداري صارم ويفصل بين نطاق الإشراف، والإدارة التنفيذية والموظفين والعمال.

وليد لم يكن من الموظفين العاديين، لقد كان موظفاً طموحا لديه مجموعة من الأفكار حول العمل تنطلق من ثلاث قواعد الأولى أن حرية التفكير مدخل الإبداع في العمل والثانية أن الإبداع في العمل يزيد من مساحة الحرية والثالثة أن التقاط نتاج الإبداعات واجب من واجبات القيادة الإدارية.

في شركة العقارات والبناء تطحن الحصى وتخلط مع الرمل والإسمنت وكذلك الأمر فيما يتعلق بآراء الأفراد، لا يتم التميز بينها بل تطحن دون تمحيص لتشكل عمود الخرسانة الذي لا يحتاج إلا إلى نفس المكونات ، فمهما فكرت شمالا أو يمينا أنت وفكرك لا تساوي حبة حصى أو رمل! هذا ما كان من رأي أحمد العرفج المدير العام للشركة.

في ظل تنابذ المفاهيم وعقلية الإدارة الصارمة فبالضرورة يسود رأي المدير وفق التسلسل الهرمي فلا يعود لأمثال الموظفين أي دور فكري أو إبداعي كما كان يأمل وليد لاسيما وهو قد وضع نصب عينيه أن يحقق جزءا من أفكاره وأحلامه من خلال هذه الشركة.

في قسم التسويق عمل وليد، حيث كان ضمن الطاقم المكلف بتسويق الشقق السكنية والمحلات التجارية في برج الأنوار التابع للشركة... ينطلق صباحا إلى الأنحاء الأنيقة في المدينة ويطرق باب الشركات والمتاجر والمحلات ليعرض مزايا الشقق

والمحلات، وهكذا ضمن طاقم في التسويق زاد عن الثلاثين.
شهور ثلاثة طويلة مرت ولم يستطع وليد أن يبيع إلا عددا محدودا من الشقق بجهد جهيد وبشق الأنفس ، فهو لم يستطع أن يغير في الرسالة الاعلانية المكتوبة والمتوجب أن يحفظها عن ظهر قلب ويرددها في كل مقابلة مرفقة بالمخططات والشروحات التفصيلية حتى كتم الأمر على أنفاسه فغدا يردد الرسالة كأنه آلة تسجيل.

طرأت في ذهنه فكرة تتلخص في أن يعرض الأمر على المشترين المحتملين من خلال تسجيل سريع وبسيط و بلمسات فكاهية (في شقة العمر تستطيع أن تحلم ، وأن تستحم مفتوح العينين لأنك لا ترغب أن تفوت منظر البحر في الخارج).
هكذا كانت الرسالة فسجلها بصوت ضحوك وأضاف اليها عبارة : هل تعلم لماذا ؟ لن أجيبك...لأنك ستجد الإجابة عندما...ويتبع ذلك بصوت ضاحك.

الفكرة لجدتها ولاشتمالها على شيء من الغموض المحبب أعجبت العديد من الزبائن حتى أن معدل الشراء للشقق قد زاد حتى بزّ زملاءه في فترة قصيرة.

ولما كان يسأله زملاؤه ماذا تفعل مع الزبائن لتتمكن من بيع عدد أكبر من الشقق كان يقول (النفس أرض تحتاج لحرث، وأنا أقوم بذلك ، فلا تلبث أن تتأهب للزرع) لقد كان يستخدم العرض المبسط مع النكتة وعبر استخدام (الكاسيت) بدلا من (الكاتالوجات) الضخمة وصور المخططات المملة، حتى يجلب الزبون لموقع البرج وهناك تترابط المخيلة مع المواقع فيقع الشراء.
كان يقول أنني أستخدم أسلوب التأثير في الآخرين من خلال الثلاثين ثانية الأولى وإلا فقدت المشتري لأن طول الشرح والإسهاب على أهميته يورث الملل.

لم يرق مضاعفة سجله في المبيعات لزملائه من عديمي الحيلة وقصيري النظر وفناني الإفساد فأشاعوا أنه يسرق زبائنهم وينسبهم إليه ...وهل لدى المدير من وقت للتمحيص والتدقيق بل كان يكفي همسة في أذنه من مقرب ليصبح مصير وليد في مهب الريح.

بعد ثلاثة أعوام وإثر انكسار وفشل حل بشركة أحمد العرفج... وفي أحد المطاعم جلس وليد إلى طاولة مجاورة لأحمد العرفج الذي كان يتعشى مع عائلته، كان يقطعه حديث وليد الصاخب والممتع مع مدير شركة عقارات أخرى هو مديره الحالي الذي أتقن الاستماع وآمن بالقواعد الثلاث لوليد الذي ما أن وصل لنهاية حكايته حتى

وجد مديره السابق - الذي طرق الحديث أذنيه- والذي يراه للمرة الأولى يقوم من مقعده ويمد يده إليه مصافحاً ويقول له أنت الرابح وأنا خسرت! وفقك الله وينطلق مع عائلته خارجا ... والشيء الوحيد الذي قطع ذهول وليد وتساؤله الداخلي: من هذا؟! هو صوت مديره الجديد يقول له: ألا تعلم من هذا؟

كتبت في ٢٠٠٧/٨/١٢

أبو العامود والمدير العام

أبو العامود رجل طويل كالطود إلى الدرجة التي تظن أن رأسه يناطح السحاب، وهو ببزته الرمادية التي يلبسها دائما وربطة العنق المقلمة تظنه واحدا من أولئك الارستقراطيين أصحاب القصور والقلاع المنتشرة في المدن الأوربية الساحلية ، وربما تظنه واحدا من قيادات الجيش الإنكشاري التركي ببنيته الصلبة وارتفاع كتفيه (وكشرته) التي لا يماثلها كشرة الشهير (جميل البديري) في البرنامج التلفزي للإعلامي (شريف العلمي)، وقد أسمى ابنه عامود بغية أن يكون صلبا كالعامود لا خداجا كما خلق.

أبو العامود قنبلة التزلف واعصار (مسح الجوخ) كان يجعل كشرته ترتسم في وجهه غالب الأمر ليعطي انطباعا بالجدية والعظمة ، ولكنه كان يتخلى عنها أحيانا ليرسم بدلا منها ابتسامة أو ابتسامات يوزعها على الغادي والرائح متى ما كان له عندهم حاجة ما.

أما عن الابتسامات أمام المدير العام فحدث ولا حرج لمن جاء وخرج أو دخل من الباب مستقيما بلا عرج.

قال مزعل: أنظر إليه وهو يأكل وكأنه سفينة تغرق!

قال فرهود: ماذا تقول؟ وماذا تقصد بالسفينة، لم أفهم؟

قال مزعل: أنظر وتعرف أنه يغرق في المرق حتى قمة أنفه، ألا ترى أنفه وفمه وذقنه تشاركه الأكل وكأنه يأكل للمرة الأخيرة.

قال فرهود (ضاحكا، ومتأملا مليا بأبي العامود): (الله يجازيك) والله لم أنتبه لذلك

سابقا، بل الآن (أزيدك من الشعر بيت) فها هو يجعل من كفّيه ومعصميه وكوعيه شركاء في الغرق أيضا.

قال مزعل مبتسما: أراك دخلت على الخط بقوة.

قال فرهود: المرء على دين خليله.

كانت العزومة التي دعا لها المدير العام تشتمل على الوجبة الرئيسية في الخليج العربي وهي الأرز والمرق واللحم وهذه المكونات الثلاثة كانت بالنسبة لابي العامود ورهط كثير تمثل القواعد الرئيسية المحركة لعمله.

فلا يكاد أبو العامود أو صديقه الوحيد الأوحد خليل فرفر يقدم عملا أو خدمة إلا واشترط لأدائه أن يبتلع خاروفا إن أمكن أو عزومة على (البرياني) أو (الكبسة) وفي أسوأ الأحوال كيلو مشاوي.

ما زال أبو العامود يأكل أو يغرق كما وصفه مزعل وهو بطريقة ابتلاعه للّقمة له فنون، حيث لا يترك لها فرصة الحركة في الفم بل يدعها تنزلق سريعا إلى معدته ليلحقها بالثانية والثالثة والعاشرة وهكذا، بقطعة من صدر الخاروف أو مصمصة للعظام بصوت يجعل من جميع المتحلقين على (السدر) ينتفضون ويتلفتون يمنة ويسرة.

قال مزعل: أنظر إليه يختنفر وهو يأكل وكأنه محكوم بالإعدام يطلب وجبته الأخيرة لا يريد أن يبقي شيئا .

قال فرهود، وهو يمد يده ليلتقط شيئا من اللحم: دعنا نأكل قبل أن يصلنا طوفان أبو العامود، أعاذنا الله واياك منه.

قال مزعل وهو يشمر كمّيه والله صدقت.

القوم من رؤساء الأقسام والدوائر والموظفين متحلّقون يأكلون بأيديهم من دسم الطعام، ولا تسمع إلا صوت الصحون والملاعق لمن يستخدم الملاعق، أو صوت أبي العامود الذي يشبه الشخير والنخير بين الفينة والأخرى.

دخل المدير العام متأخرا، وسلم عليهم... فتوقف الجميع عن الأكل يرحبون به إلا أبا العامود بالطبع حيث وجد في ذلك فرصته للفوز في السباق.

أفسح الرهط المكان للمدير العام، بجانب أبي العامود فأنزعج جدا لأنه سيضطر لخدمة مدير الشركة في وقت كان الأولى فيه خدمة بطنه هو .

قام أبو العامود بنزع جاكيته وربطة العنق وألقاهما جانبا وأخذ يفتت قطع

اللحم الكثير الذي نثر فوق الأرز مع حضور المدير العام ، وبدأ يقذف بالقطع بل قل الكتل لمدير الشركة.

قال أبو العامود: كل ياسيدي، فإن هذا اللحم بلدي.

قال المدير العام: شكرا يا أبو العامود ، اتركني -الله يرحم والديك- آكل بطريقتي .

قال أبو العامود: أعرفك تخجل يا سيدي ، خذ هذه القطعة أنها من الكتف وناضجة.

أخذها المدير العام ووضعها جانبا ، ولم تمض ثوان حتى قذف له بقطعة أخرى كانت أكبر حجما من رأس أبي العامود شخصيا فقطب المدير العام جبينه ودفع بالقطعة جانبا.

نظر مزعل وفرهود إلى وجه المدير العام ضعيف البنية، وكادا ينفجران ضحكا، فالمدير العام غاضب أشد الغضب لأن أبا العامود بعد أن يئس من إطعام المدير العام بالحسنى أخذ يضع اللقم في فمه قسرا وبشكل متتال.

قال مزعل، وهو يجلس على مبعدة من الحلقة التي تجمع المدير العام وأبا العامود: أنظر يا فرهود إن المدير العام يكاد يختنق.

قال فرهود: فعلا إنه يتحسس بطنه وحلقه ، وأبو العامود لا يأبه، ويكاد يقضي عليه.

قال مزعل: لنلحق به قبل أن يموت.

كان المدير العام وهو رجل شديد الشفافية والأدب قد بدأ يتعرّق من كثرة الأكل، وأحمّر وجهه وجحظت عيناه فوق جحوظهما الطبيعي بشكل لافت دعا أحد المدعوين لأن يضرب على يد أبي العامود ليوقف تدفق سيل الطعام المقذوف من يده إلى فم المدير العام.

انقلب المدير العام على ظهره فاضطرب المدعوون، وتوقفوا عن الأكل فقام طبيب الشركة الذي كان بين المدعوين مهرولا وأجرى للرجل الإسعافات اللازمة.

أبوالعامود ما زال يأكل ، ويحمل قطعة هبرة من الفخذ كان يريد أن يدفعها في فم المدير العام، فلما رأى انقلاب المديرعلى ظهره ، أسرع بابتلاعها وهجم يقبل رأس المدير العام الذي كادت روحه تطلع .

نظر الجميع إلى أبي العامود نظرات اتهام واحتقار. فقال أبو العامود والمرق ينقط من مرفقيه وذقنه: ماذا بكم يا جماعة ، قولوا للمدير العام الحمد لله على السلامة ألا ترون أن الله ستر.

العزومة المقامة في ديوانية المدير العام الفسيحة كادت تتحول إلى مأتم لسبب حُمق أبي العامود.

وبينما الجميع يهنئون المدير العام بالسلامة، وقف مزعل وتقدم خطوات قصيرة من بعيد حيث كان يجلس إلى أبي العامود وجذبه من كم يده المشمر إلى أعلى وقال له: أخرج قبل أن تُطرد.

صرخ أبو العامود: الله أكبر، الله اكبر، هل تريد أن تحرمني شرف خدمة المدير العام، والله لا أفعل ولا أخرج.

سمع المدير العام حوار الرجلين الواقفين بقربه وهو ما زال مضطجعا يتنفس بصعوبة من آثار الألم والتخمة وبعد اسعافه، أشار بيده إلى فرهود وهمس في أذنه ببضع كلمات اتجه بعدها فرهود إلى أبي العامود وصفعه صفعة وصل صوتها الجانب الشرقي من المحيط العربي.

كيف تصنع قائداً فاشلاً ؟

التقى جورج مع زبداء في أحدى (الكافتيريات) في مدينة بيت لحم، وذلك في فسحة الغداء التي حددتها الشركة (شركة الحديد الحليبي) بين الساعة الواحدة والثانية ظهرا، وكثيراً ما كانا يلتقيان لا سيما وأنهما يعملان في نفس الشركة وان كان كل منهما في قسم آخر.

واعتادا أن يتبادلا الأحاديث والشكوى عن الرئيس المباشر في العمل، وكثيراً ما أطلقا النكات عليه... لدرجة أنه بمجرد أن يمر بالأقسام يقوم الموظفون بكتم ضحكاتهم بأيديهم ويشيحون بوجوههم عنه كي لا يراهم كذلك.

قال جورج: ماذا تطلبين للغداء ؟

قالت زبداء: كالمعتاد.

طلبا الغداء المكون من فطائر متنوعة باللحم والجبن والزعتر والسبانخ، وبدأ مع حضور عدد آخر من الموظفين الذين توافدوا ، وشرع الجميع يتناولون الفطائر، ويتشاركون في الهم اليومي وهو ماذا فعل رئيسهم المباشر السيد عنفش ؟ هكذا أسموه رغم أن عنفش اسم عربي صميم وليس سخرية !؟ وما هي القرارات المجحفة التي أصدرها والتي لا تَمتّ للمصلحة أو لعلم الإدارة أو للفهم بصلة!؟

على الطاولة الكبيرة التي ضمت عشرة من الموظفين، دفع أحدهم كرسيه إلى الوراء، ووضع رجليه عليه، وصعد منه ليقف على سطح الطاولة... في حركة مفاجئة وغريبة، وقام يقلد المدير عنفش بحركات جسده المكتنز ، وشفته المتهدلة وعنقه

القصير... وكرشه المنتفخ... يترنح كالراقص فوق الجراح.
بدأ يقلده بحركات يديه وصوته النسائي يقول: أنتم لا تفهمون شيئا أنتم طناجر، أنا ولا غيري أنا الفهمان الأكبر، وبدأ يحرك ربطة عنقه و يترنح بتثاقل مقلدا تأنق السيد عنفش المصطنع حتى كاد يطيح بالصحون... وأخذ الحضور بالضحك... وهو يكمل وصلته، إلى أن نزل أو أنزل.

أنه أحد ضحايا السيد عنفش والذي – أي الضحية – إن قال: أسود رد عليه السيد عنفش أبيض، وإن قال ثور يرد عليه المدير احلبوه ، في معاكسات أضرت بالشركة ماليا أيما إضرار، وهي مشاكسات لا طائل منها إلا إثبات عنفش لذاته بين مدراء الشركة وهو القائد السياسي السابق المعروف... هكذا يعتبر نفسه، ويفترض بالناس أن تعامله.
قال جورج : أنتم تعلمون يا جماعة أن السيد عنفش (وكتم ضحكته حيث كان مجرد لفظ الاسم يثير فيه الضحك) كان أحد القادة الهامين في تنظيم سياسي فلسطيني اندثر، لذلك يجب ألا تؤاخذوه فيما يتصرف بعد تقاعده المبكر، وعمله معنا... فالطبع فيه يغلب التطبع.
فرد عليه الراقص على الطاولة: والله، وخبرة يعنى ؟! أن هذه التنظيمات التي لم تحقق شيئا للوطن، استسهلت تعذيب المواطن واستغلاله عشرات السنين وأدمنت الكذب عليه تارة باسم الله وتارة باسم القومية أو الاشتراكية إلى أن انقسم الوطن والحمد لله لوطنين.
قالت زبداء السمينة البيضاء وهي تتلمظ بعد أكل خمس فطائر: بل ثلاث.
قال جورج: لا نريد كلاما في السياسة رجاء ، ولكن أرحموا عزيز قوم ذل، فلا تؤاخذوه، وخذوا بالاعتبار أنه قريب المدير العام ،وزوج ابنته كما تعلمون.
فرد الراقص على الطاولة: إن الرجل بلا وعي أو فهم ، لا دراسة ولا خبرة ، ولا يتحمل الآخرين ويفترض أنه الصواب وحده... بل ويشتمنا بلا خجل رغم أنه يلدغ بأكثر من ثلاثة أحرف.... ويخالفنا في كل شيء يفهم به أو لا يفهم ، إنه رجل حشاش... ويسخف عملنا... فهل نسكت عليه، أجيبوني؟!
ردت زبداء وهي تمسح فمها: أنه قائد فاشل.
قال الراقص: وهل يجدر بنا أن نسميه قائدا أصلا!
قالت زبداء وهي تتخذ وضع الأستاذ: إن القائد من يشغّل الآخرين، وهو قائد لأنه مسؤول

عن جماعة، ولكن أقصد أن أسلوب إدارته فاشل لذا فهو قائد فاشل.
قال جورج: (مبتسما) على ما يبدو أن التنظيم الذي ينتمي إليه أو كان ينتمي إليه لديه شهادة خبرة وجودة في صناعة القادة الفاشلين.
قالت عمرّطة ذات الحاجبين الهلاليين: يا ست زبداء أنا أخالفك الرأي فليس أن يكون السيد عنفش رجلا منخزلا وطمطمانيا !! يعني أنه فاشل.
قالت زبداء: يا ست عمرّطة رغم أنني حتى الآن لا أعرف معنى اسمك العظيم أو من أين أتيت به؟! فأنا أحترم رأيك ولكن ماذا تعنين بكلمة (رجل منخزل وطمطماني)... ارحمينا.
تجاوزت عمرّطة التعريض باسمها وقالت: الرجل المنخزل أي الذي يمشى بتثاقل يا عدوة اللغة العربية، وطمطماني أو طمطم أي في لسانه عجمة.

يرفع جورج كفه اليمنى ليقترب من فكه الأيمن واضعا إبهامه وراء أذنه كمن يتأهب للتكبير، ويصدح مغنيا: والله طمطم زماني يا زماني طمطم... ورددها الحضور وراءه مع اللحن التراثي المحوّر من أغنية مرمر زماني للمطرب صباح فخري... حتى ضج رواد المطعم.

خرج الجميع من المطعم إلى الشركة، حيث إن وقت الغداء كان قد انتهى والتزم كل منهم بمكتبه إلا عمرّطة التي عرّجت على الدكان المجاور لتحضر الشوربة الصينية الجاهزة (النودلز) التي كان يحبها رئيسهم في العمل السيد عنفش وتوجهت مباشرة إلى مكتبه، وقدمتها له، فابتسم وطلب منها الالتحاق بمكتبها حالا... ثم قام وطلب من الفرّاش أن يأتي بماء ساخن ليصبّه فوق أعواد (النودلز) الملتوية ويضع له في صحن قليلا منها ليأكل، أولا... فهو شكاك أشر، منذ عهد قيادته في التنظيم السياسي المندثر.
كانت تمر الأيام في شركة الحديد الحليبي من سيئ إلى أسوأ لا سيما وأن السيد عنفش رئيس إدارة التسويق، والتسويق بالطبع يحتاج لفن وعلم وحلم وحنكة وهو لا يمتلك من هذه المواصفات شيئا إلا أنه زوج بنت المدير العام... ما أدى لتراجع مبيعات الشركة وهبوطها إلى الحضيض.

دعا المدير العام لاجتماع إثر مشكلة كبرى بل وفضيحة حصلت في الشركة مفادها أن موظفا أو موظفة أو عدداً منهم قد علقوا على باب المدير عنفش ما غيره ورقة كتب عليها التالي:

كيف تصنع قائدا فاشلا !؟

١. دعه يستعرض ليثبت ذاته .

٢. اختر قائدا محدود القدرات، لا يفهم ولا يحزنون.

٣. أقنعه أن العمل بدأ من يوم تسلمه السامي لمنصبه فقط.

٤. يتميز بشخصية متبرمة لا تتحمل حرية الآخرين أو نقدهم له، وببساطة لا يتحمل الآخرين .

٥. عشوائي فوضوي مزاجي بلا قوانين ولا قيم.

٦. يعقد اجتماعات مفتوحة بلا ضوابط أو أهداف.

٧. يتدخل فيما لا يعنيه وبتفاصيل لا تغنيه.

٨. متحامل على النجاح والناجحين.

٩. حشاش، لا يثق بنفسه ولا بالآخرين .

١٠. كن مصرا على أن يكون بلا شهادة جامعية، ولا يلم بأبسط قواعد الإدارة.

١١.شرشوح، لذا دعه يهين الناس ويقمعهم.

١٢.اختره ممن يركعون للنساء والمشروب والمال فتستولي عليه.

١٣.لا يوالي المبدأ أو الحق بل ولي النعمة فقط .

حاول المدير العام أن يستشف من الاجتماع من كتب هذه الورقة الرسحاء (أي القبيحة) وهي كلمة علمته إياها السيدة عمرّطة فقيهة اللغة العربية الفصيحة في الشركة... رغم عدم وجود علاقة بين الحديد الحليبي وفصاحة اللسان، إلا أن عمرطة دائمة المزج حبا في لغتها العربية.

على الغداء قام كل من جورج وزبداء التي ترتبط بقرابة معه بعزومة المدير العام على الكافتريا المجاورة، وبينما هم يأكلون ويسترقون النظر إلى بعضهم البعض وجوههم منخفضة... والمدير العام منشغل التفكير مهموم بأحوال الشركة، وبكاء ابنته المتواصل من انزعاج زوجها السيد عنفش نتيجة تأثره الشديد من ورقة كيف تصنع قائدا فاشلا، ما جعله يحنق أشد الحنق ويبدأ في تكسير ما تيسر منذ دخوله البيت حتى خروجه مرفوقا بعشرات الشتائم واللعنات.... حتى فرت الزوجة لبيت أبيها.

قالت له زبداء هل سمعت آخر نكتة !؟

صحا من سرحانه وتقطيبة جبينه وتأمله في ورقة كيف تصنع قائدا فاشلا... التي علقت

على باب مدير التسويق في بيت لحم ورفع رأسه وتبسم وقال: هاتي ما عندك!
فضحك جورج مسبقا لأنه من ألّف النكتة، فقالت: يقال إن ثلاثة مدراء محششين استقلوا سيارة أجرة فلما رآهم السائق بهذه الحالة شغل السيارة ثم أطفأ المحرك، وقال: لقد وصلنا ، والسيارة لم تتزحزح من مكانها. فقام المدير الأول وأعطاه الأجرة، وخرج الثاني من السيارة دون أن يدفع قائلا للسائق: شكرا، أما السيد عنفش فخرج من المقعد الخلفي ودار من أمام السيارة ليواجه السائق في مقعده.... ارتعب السائق بمجرد أن واجهه ظاناً أنه كشف الملعوب... إلا أنه (أي السيد عنفش) نظر طويلا في وجه السائق المرعوب وارجع جذعه للخلف ثم تقدم وبصق في وجهه قائلا له: مرة ثانية لا تسرع !؟
فهم المدير العام الرسالة ووضع رأسه بين يديه وطفق يبكي ابنته وأولادها.

أبواب وشرفة

في الجامعة، حيث المجتمع المصغر، تكون العلاقات أكثر انفتاحا وأقل تحفظا حيث تظهر المشاعر على صورتها الأولية غير المشوهة لسببين، أتعرفونهما؟! أجال نظره بين الحضور من فوق إطار نظارته، ثم أكمل قائلا: الأول أن سن المراهقة والصبا فيه الكثير من المشاعر و الجنوح والانطلاقة والثورة و عدم التحفظ في التعبير سواء كان هذا التعبير بالصمت أو الكلام أو الغضب أو الضحك أو أي تعبيرات كلامية أوجسدية أخرى.

و بكل بساطة-أشار بيديه بشكل مفتوح وأومأ بجسده إلى الأمام- فان الطالب يكون أكثر تحررا من الناحية الاجتماعية والضغوط والمسؤوليات، على عكس الحياة العملية التي يتم التعامل فيها بين الناس وخاصة في نطاق العمل في إطار من التعديل المستمر للسلوكيات أو التصرفات.

هكذا تحدث الأستاذ شمس في محاضرته مثيرا الموضوع للنقاش، و لما كان عبد الباسط من طلابه فإنه بطبيعته المنفتحة جدا كان السبّاق للتعليق و بشكل مباشر أثار الكثيرين بمن فيهم الراكزة آلاء.

عبد الباسط: بمعنى واضح أنت تقول تعديل بمعنى تغيير وبمعنى إظهار ما يخالف حقيقة المشاعر أي أن الكذب و النفاق سمة البالغين أو الكبار أمثالك ، وعليه أوافقك على هذا الرأي!

الأستاذ شمس (مبتسما): مع تجاوزي لتعريضك بي، أنا لم أقل ذلك بالضبط.

آلاء(تتكلم بعد الاستئذان): لا أقر أسلوب عبد الباسط الهجومي، ولا أوافق الأستاذ

شمس على أن الطالب عامة متحرر اجتماعيا، فنحن شعب متدين ومحافظ ونحن كطلاب من هذا الشعب.

الأستاذ شمس:لم اقصد التحرر من زاوية التساهل القيمي والخلقي، وإنما من زاوية اليسر في استخدام وسائل الاتصال المباشرة بالتعبير عن المشاعر دون التوقف للتفكير ولو لدقيقة، والقيام بتعديلها أو إعادة صياغتها حسب الموقف. يوجد في عقل الإنسان خيال جامح وأبواب وشرفة تطل على الآخر، وترى الجديد وترى المختلف، وتعبر الحواجز وتعبر بسلاسة ورحابة .

آلاء (تحاول أن تسبق ردة فعل غيرها فتبادر في الرد): هل تقصد أبواب وشرفة المشاعر...مثل مشاعر الخوف أو الكراهية أو الغضب أو الاتهام أو الخجل أو ...

الأستاذ شمس: و مشاعر المحبة و التقارب و التباعد ووو...

وهنا ثارت في الفصل همهمات و أصوات هامسة، وكان في خضمها طالب شديد التجهم يعتبر الابتسامة أو الضحك دلالة على الانحراف المفضي إلى الردة؟! لا سيما أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن يضحك لسبب احتلال فلسطين أبدا كما كان يردد أمام زملائه، فقال صهيب وهذا كان اسمه وبغضب: ماذا تقصد بمشاعر المحبة؟ هل تريد أن تعلمنا في هذا الدرس العشق و الغزل و التدله والفجور؟ و هل تريد أن تخرجنا عن الشريعة الإسلامية السمحاء؟

الأستاذ شمس (وأمارات وجهه تشي بالاندهاش): استغفر الله، ما هذا الاتهام المباشر بالخروج عن الدين... ومع ذلك، أرأيت ، هذا ما كنت أتحدث عنه، هل فهمت؟!. بينما صهيب المتجهم استمر متجهما ويعبر عن عدم فهمه، أكمل الأستاذ شمس قائلا: تتحرر المشاعر بمعنى أنها تنطلق بيسر وسهولة متجاوزة الأبواب والحواجز، و قد تصل إلى مرادها أو إلى ما هو أبعد كما حصل منك، وقد تصل لمرادها ولو بالحلم....

عبد الباسط: ماذا نفهم من هذا الكلام بالضبط، ما المغزى، إلى أين تريد أن تصل بنا؟

الأستاذ شمس (وهو يتحرك بين الطلاب في الفصل جيئة وذهابا) و ما أن أنهى عبد الباسط سؤاله حتى واجهه مباشرة، وقال: هذا ما أرغب في ان تستنتجوه كفائدة للحوار، فكروا كثيرا وتأملوا! تعلموا التفكير بهدوء والتأمل.

كانت آلاء ذات الوجه الصبوح والحجاب المحتشم والثبات قد انشغلت بالاتصال مع

زميلتها من خلال الرسائل القصيرة عبر الجوال فلم تنتبه إلا و الأستاذ شمس في مواجهتها ، فجفلت ثم أغلقت الجوال حيث أدركت خطأها وقالت: آسفة (بيسر).

تبسم الأستاذ شمس وشد ربطة العنق قليلا ، و قال إن السؤال مازال مطروحا حتى المحاضرة القادمة.

قام عبد الباسط ليفتح باب الفصل ويخرج حيث انتهاء المحاضرة ، فلم يستدل على الطريق المعتاد ! حارت نظراته في الخارج، خارج الباب، ونظر خلفه فإذ بالطلبة ينظرون بترقب من وراء نظره.

هل مشى الأستاذ شمس إلى مكتبه و لملم أوراقه ومسح اللوح؟! وهل رفع يده ملقيا التحية على طلبته معلنا انتهاء الدرس؟! وهل دخل في الجدار ليخرج بخارا ؟! هل هذا ما رأيته أم أنني أهذي؟! هكذا حدث عبد الباسط نفسه.

خرج عبد الباسط من الفصل، فالدرس انتهى أو هكذا بدا، وكان لا بد من الخروج، فأدخل بلا خيار في غرفة أخرى متداخلة مع أخرى إلى ساحة صغيرة أنيقة تضم كراسي وثيرة عالية الظهر، ومجموعة من الطلبة بلا عيون تأكل جالسة، و منصة على يسارهم يقدم من خلالها الطعام والشراب وكأنها مطعم في مطار كبير.

استغرب الطلبة وفزعوا من ذلك ، فلأول مرة يرون هذه الغرف الكثيرة، وهذا المكان الغريب، وهؤلاء الطلبة بلا عيون، وفي جامعتهم، ومنها خرجوا إلى شرفة فسيحة جعلت من طالبة من الطالبات تصرخ قائلة: ما هذا؟! إنها شرفة بمساحة رام الله.

كانت الشرفة تطل من الطابق الرابع عشر على شاطئ بحر كبير، أكبر من بحر غزة وبحر يافا، يعج بالنزلاء، كانت الدهشة كبيرة إذ لم يسبق لطالب فلسطيني -أو طالبة- في الضفة الغربية أن رأى بحرا هذا أولا، و ثانيا من أين جاء هذا البحر أصلا؟! و جامعة بيرزيت لا تطل إلا على أودية خضراء و مجموعة تلال ؟!

انشداه واستغراب، فرح غامر ممزوج بالتوجس، خوف و أمل هي مجموعة المشاعر التي اختلطت مرة واحدة على مجموع الطلبة و منهم صهيب المتجهم الذي سارع للقول: إن غضب الله يحل بنا بسبب آثامنا و خروجنا عن الشريعة السمحاء و قال خطيبا في الجمع المرتبك: إن ما يحصل لنا الآن يعطي دلالة أكيدة على أن الخلافة قادمة والإسلام هو الحل.

لم يستطع معظم الطلبة فهم العلاقات بين ما يقوله صهيب و بين ما يحصل لهم، إضافة

لتناقض كلامه أصلا وكأنه يحفظ شعارات يرددها كالببغاء بلا وعي أو تفكير، و مع ذلك تشددت مجموعة صغيرة من الطلبة تدافع عن رأيه هذا.

صرخ عبد الباسط: انتم في ايش و نحن في ايش ؟ ما هذا الجدل حيث لا ينفع ، و ما هذا التخريف حيث يجب تحكيم العقل؟ أنظروا إلى ما يحصل لنا وفكروا فيما يحصل على أرض الواقع .

ثم ضحك بصوت عال فلم يستطع أن يعبر عن استغرابه من المشهد إلا بذلك، وتحلق حوله مجموعة من الطلبة اخذوا يتبادلون النكات متناسين حيرة المكان.

آلاء رأت بحفظ الشعارات والتشدد لها دون وعي قدرة للمسيطِر على التحكم بعقول وقلوب الناس وتوجيهها نحو ما يريد كما تفعل التنظيمات الاسلاموية التي تحتكر الحقيقة وتضمن الجنة وتعلن الصواب بين جوانح قادتها فقط ، ما يعني أن يسر وسهولة التعبير عن المشاعر كما قال الأستاذ شمس مدخل استغلال المهيمن أكان شخصا أو حزبا أو اعلانا على عقول الطلبة وتوجيهها نحو الصحيح أو الخطأ، نحو النور أو الظلمة، ما يحتاج منا دوما إلى التفكر والتعديل المستمر للأفكار والمواقف.

آلاء وجدت في الحوائط المحيطة بمساحة الشرفة الواسعة بابا قريبا، قررت بعد تردد قصير أن تفتحه ففعلت وانطلقت مسرعة وتلاشت، وتبعها معظم الطلبة الذين تخلى قسم منهم عن كتبه وعن صهيب المتجهم، و دلفوا وراءها.

خرج الطلبة من باب الفصل إلى متاهة من الغرف فمطعم فشرفة بمساحة رام الله في الطابق الرابع عشر تطل على بحر ثم إلى الشارع العام من خلال باب قريب... فتكاثرت الأصوات و التساؤلات واختلفت المشاعر و قادت آلاء الجمع تسير به مبتسمة بين المحلات التجارية الواضحة ليجدوا أمامهم وإلى يمين الشارع فقط، ماذا؟ ماذا تتوقعون؟

إنها مجموعة من العربات الخشبية و كانت هذه العربات مصطفة بالمئات على جانب الشارع الذي لا يظهر منه إلا يمينه، و الناس يركبونها بالعشرات فتنزلق بسهولة على الجانب الأيمن من الشارع حيث لا طرف آخر بالشارع أصلا.

قررت آلاء الركوب فتسلقت العربة، و تبعها الآخرون، ليس كلهم، الذين كانوا بعرباتهم المرتفعة هذه ينزلقون بسلاسة...

رغم أن العربات بلا عجلات إلا أنها كانت تسير بتوازن عجيب، بل وبها تجاوزوا زوايا الشارع دون اصطدامات أوصلتهم إلى ساحة، فناء كبير، مخصصة لبيع الأقمشة.

نزل الركاب المندهشون من عرباتهم و انطلقوا في اثر أصوات موسيقى تبين أنها لاحتفال مخصص للمطر، نعم للمطر،ولم لا نحتفل بالمطر! هكذا حدث عبد الباسط نفسه، وماذا أجمل من المطر!

ما أجمل هذا الاحتفال الذي يقيمه تجار الأقمشة الملونة كعقولنا وأفكارنا للمطر سنويا، فيرقصون و يغنّون ويعبرّون بيسر اجتماعي عن مشاعرهم كالأطفال أو كطلاب الجامعة، إنهم يعبرون عن حبهم للحياة مثلنا نحن، نعم مثلنا نحن، وصرخ وديع عاليا قائلا ومكررا: لقد فهمت لقد فهمت؟! نحتاج أن نفتح الأبواب المغلقة في عقولنا لنطل من الشرفة حيث نحتاج أن نكون أطفالا أحيانا فنعبر بيسر كما نحتاج أن نكون عقلاء في أحيان أخرى فنعدل ونغير في آرائنا ومشاعرنا ، وصحا من غفوته في الفصل.

أدار الطلاب وجوههم نحو عبد الباسط بدهشة، والتفت إليه الأستاذ شمس من أول الفصل- فلم يتحول بخارا كما حلم عبد الباسط- وكان منشغلا يكتب بعض الجمل على اللوح، وقال له: مالك يا عبد الباسط هل عدت لأحلامك المفتوحة حتى في الفصل؟ وعلى كلّ إن كنت فهمت فهذا المطلوب، و سارع إلى التغيير؟

لا فـرق!

خطر لعاصم أن يكتب مذكراته ، كما فعل الرئيس الأمريكي السابق بيل كلنتون على سبيل المثال، أو كما فعل رئيس الوزراء البريطاني في الحرب العالمية الثانية ونستون تشرشل أو دنيس روس، أو حتى تلك التي لا اسم لها في عالم السياسة، الفنانة كما تدعي التي كتبت مذكرات قحبة ، فإذا كانت "القحبات" تكتب مذكراتها فلم لا يكتب عاصم ذو التاريخ الفريد والنهج السديد والعين الواحدة مذكراته!!

خط عاصم بقلمه الذهبي السطر الأول ثم توقف، وللعلم فقلم عاصم ليس ككل الأقلام فهو من نوع فاخر ودوما لمّاع كما هي حال حذاء وذقن عاصم.

كتب عاصم بعد بسم الله الرحمن الرحيم: (ولدت في الخامس عشر من شهر إبريل من عام الفيل) عام الفيل؟! يا لطيف، وهل أنا أبرهة الحبشي؟! هكذا حدث عاصم نفسه، ورمى القلم جانبا، فلم يستطع أن يكمل فهو لم يكتب في حياته ما مجمله ورقة واحدة إذا استثنينا واجباته المنزلية حتى الصف السادس الذي خرج منه طرداً.

في الصف السادس وقبل أن تحل العطلة الصيفية، وفي يوم ليس فيه ضوء شمس وضع مدير المدرسة رجله في ظهر عاصم وألقاه خارج بوابة المدرسة بين ضحكات الطلبة وتشفي المدرسين الغاضبين من شغبه الذي لم يكن ينتهي ليعود إلى والده العامل في مصنع الشوكولاته الوحيد في بلدهم دامع العينين فيناله من عقاب الأب مالم يقم به المدير.

عدا عن أنه لم يكن كاتبا أصلا ، فهل يكتب عاصم عن سنوات البهدلة التي عمل فيها بائع

بسطة الخضرة ومنادي التاكسي وفراش المؤسسة ومرمطون (السوبرماركت)، أم يكتب عن أيام الجوع والغضب وأيام النفور منه والعجب.

وكيف له أن كتب ألا يكتب أنه عمل مرافقاً هماما لأحد قيادات تنظيم سياسي فلسطيني يخلط بين الدين والقداسة الفردية وبين عبادة الذات والسياسة ليكتشف كم كان حماراً حينما ظن أنه بالعمل مرافقاً في هذا التنظيم سيكون الوضع مختلفا عن سواه لو عمل في التنظيم المتهتك الآخر الذي هيمن وساد وتنفذ وقاد.

قام عاصم في بداية انبعاثه (المقاوم) بإطلاق لحيته حتى طالت وتكورت وأحاطت مما جعل منظره يبعث على الرزانة والوقار المكذوب، تيمنا بالقائد الذي يقوم بحراسته، وكان محركه الأساس للعمل مرافقا تطليق الفقر وفق بيت الشعر للجاهلي عروة بن الورد القائل:

دعيني للغنى أسعى فإني/رأيت الناس شرهم الفقير، فالمرافق سر معلمه وقفل بيت نزواته كما علم من زملاء له في المهنة، إضافة للمثل الشهير (كلب الشيخ شيخ) فأن يكون كلبا بهذا المعنى خير من أن يكون حمارا، حيث سيرى العز والرز والغنى والخز.

في عهد المرافقة رأى العجب العجاب ابتزاز وسرقات... إتاوات باسم الله أو باسم الخراج والصدقات، وميزانيات تبعثر على العائلة والأولاد وعلى العشيقات والأحباب...، وقصور وشقق مفروشة من نصيب القادة دون سواهم، وسيارات وغانيات وفواحش كلها باسم الإسلام العظيم.

تماماً كما كان يروي له زملاؤه من المرافقين الآخرين في التنظيمات الأخرى الذين يقودون وإياه-نعم هم الذين يقودون- القائد الكبير أبو اللبالب الهوجل (والهوجل في اللغة العربية أي الأحمق) وكان أبو اللبالب هذا يحب أن يتسمى بالهوجل رغم علمه بمعنى الكلمة، والقائد العظيم أبو الاندفاع والقائد المنبعج أبوالأغصان والقائد أبو الخشرم.

أنهم سواسية كأسنان المشط لا فرق بينهم إلا في الزي والهيئة ومفردات الجُمل التي ينطقون بها على الفضائيات التي استغلتهم ليدمنوا صورهم وفتحات أفواههم ونهيقهم وهيئاتهم ، كما استغلوا الأمة فتجرعت من أيديهم السم والانحطاط والغمة.

قال له صديقه المقرّب يومها: نعيما الآن اكتشفت ذلك؟ صح النوم.

نحن -أي جماعة عاصم، جماعة المؤمنين- ننطق بلغة لا تخلو من ذكر متكرر لآيات القرآن

والأحاديث الشريفة سواء في مواضعها أو في غير مواضعها غالبا، تتلوها ضحكات رقيعة و(عزائم) أي ولائم من العامة الذين لا يرون في هؤلاء القادة إلا الظاهر.

وكان حينها من ألزم واجبات عاصم أن يضع جدولا شهريا ويوميا بالولائم سواء على الغداء أو العشاء وأحيانا على الإفطار، ويتلو الوليمة غفوة أو عناق طويل يظهر من مأثور أن المؤمن أكول نكوح بين أحضان الغانيات... وقليل منه يصلح المعدة.

أما جماعتهم هم فينطقون -كما تعلم عاصم- بلغة العلمانية والكفر والردّة والعمالة، يتلوها ضحكات رقيعة وولائم مجدولة أيضا، ثم غفوة أوعناق طويل يظهر ضرورة أن تعيش دنياك بين أحضان الغانيات، وقليل منه يصلح المعدة.

لا فرق!

هكذا تحدث عاصم مع نفسه... وضع القلم جانبا، وأسند ظهره إلى الكرسي وسط صالونه المرفه الفسيح، محاولا أن يستعيد ثقته بنفسه ويكتب لا سيما وأنه الآن قد طلق العمل (المقاوم) أو قل طرد لا فرق، ويعمل في مؤسسة.

المؤسسة التي يعمل فيها عاصم مدعومة ماليا من قبل الحزب الذي كان مرافقاً لأحد قادته (المجاهدين) البواسل، ولكنها مستقلة -كما يقولون- لذلك حاول بالفساد والإفساد والفتنة بين الزملاء أن يتقدم الصفوف... وبخبرته في الكذب والتدليس والتزلف و(التفنيص) من عهد المرافقة تموضع في أحد الأقسام الهامة بالمؤسسة.

هل يكتب عن جلسات النميمة والشتائم ولعب الورق وشرب المدام التي كان يديرها مع القائد الهمام القادم على بساط الريح من فوق الغمام، أم يكتب عن أضاحي العيد التي كان يتبرع بها أعضاء الحزب وتذهب إلى بيوت القادة وعشيقاتهم أو زوجاتهم بالسر، وإخوان زوجاتهم وأخوال زوجاتهم وأعمامهن.

وهل يكتب عن العمليات العسكرية الوهمية أو تلك التي يستغل فيها الشبان الأبطال ليلقوا بأنفسهم إلى التهلكة فداء لله والوطن هكذا يعلمون، ولكنها في حقيقة الأمر فداء لأغراض أبواللبالب وأبو الخشرم وأبو الاندفاع الذي يزداد بها قوة وجاها وسطوة داخل تنظيمه وأمام الامة.

نظر عاصم إلى القلم وهو في قمة الغضب ، وقال في سره: لقد كدت تهلكني أيها القلم، ابتعد عني ولا تنظر إليّ.

أمسك بيده اليسرى كوب العصير، وتجرعه دفعة واحدة ، وقام من كرسيه إلى المطبخ

ليأكل شيئا من مأدبة يوم انقضى وما زال يفكر... ليعود مسرعا.

توقف فجأة... في وسط الصالون الفسيح... تقدم خطوات، ومد يده ليمسك بالقلم الذهبي اللامع بيديه الاثنتين، بدأ يتأمل القلم مليا، يهمس ويتمتم... يشيح بوجهه عنه ثم يعود لينظر اليه ثانية وثالثة... تحرك ببطء وفتح الشباك على بعد خطوات منه وبكل ما جمع من عزيمة قام بإلقاء القلم الذهبي من الدور السابع.

كتبت عام ٢٠٠٩

البعير يحارب الشمس!

عندما فتح عينيه بعد نوم طويل، أبصر نور الشمس وكأنه يراه للمرة الأولى في حياته، نام طويلا... طويلا جدا، فهو لم يكن على صلة بالحياة إلا من خلال الليل والجمعات.... وكأس الخمرة التي تظل تلعب برأسه حتى يرى الدنيا أصغر من الحلقة التي يتدلى منها مفاتيح سيارته المرسيدس الفارهة.

أبصر نور الشمس وهي بازغة مضطرا لأن موعده مع سفير إحدى الدول المناضلة تقرر أن يكون صباحا، فانزعج من نور الشمس أيما انزعاج ، وقرر

على سريره المزدوج تمدد منذ عشرين عاماً ، وكان يتقلب ذات اليمين وذات اليسار ، فلا زوجة تقاسمه الهموم ولا ولد بقي له ليتحمل صخب الليالي ورائحة الخمر التي تنتشر حيث حلّ وحيث طلّ... لم يمر عليه يوم قبل أن تطلقه زوجته إلا وكانت صرخاتها ودعواتها عليه تتدفق كالسيل العرم: الله يكسركم، الله يأخذكم، الله لا يوفقكم... معلنة الغضب على رجل (بلا شغلة ولا عملة) ولا هم له كما كانت تقول إلا الأكل والشرب والنوم، ويسمي نفسه قائدا... غضبت على رجل جعل من ليله نهاره ومن نهاره ليله، ينام طول النهار وعرضه... ليصحو ليلاً فيعقد (الجمعات) التي يسميها اجتماعات ، للمريدين من الصيّع والهمل ممن لا عمل لهم ولا شغل إلا الشتم والغيبة والتحشيش والتفكّه على عباد الله العاملين.

نام أبو الفانوس عشرين عاما، فلم يكن يزعج أحدا في تنظيمه السياسي المسمى الجبهة الثورية الموحدة للتحرير، ولا أحد يزعجه، ومن يجرؤ!!.... لأنه صاحب قدرات

متناقصة وخبير في التزلف ويفتقد للحد الأدنى من الذكاء آثر الأمين العام للتنظيم أن يسلمه ميزانية التنظيم الثوري نيابة عن الأمة والشعب والأعضاء، ويعطى كل ذي حق حقه حيث يتسلم الأمين العام حصته الكبرى ، وما يتبقى ينام عليه أبو الفانوس..... عشرين عاما.

كانت الأموال -ما سوى الميزانية- تتدفق على أبي الفانوس على اعتبار أنه مدير مكتب الأمين العام للجبهة الثورية الموحدة للتحرير، وكانت التبرعات من عباد الله المخدوعين تتواصل.... وبدلا من أن تأخذ طريقها للتحرير، تتكدس في أحد البنوك الشهيرة في دوقية (لكسمبورغ) العظمى التي تجاور فرنسا وبلجيكا .....و تحتضن أكثر من ١٦٠ أكبر بنك في العالم.... ولا تصرف هذه الأموال ألا على ملذات ومتع أبو الفانوس.

في نومه كان يفتح رجليه دوما ، ويرفع يديه لتحيط برأسه، ودوما يعبر عن سروره بهذه الطريقة التي تتيح لمجرى الهواء أن يتخلل ثوبه الواسع فتقر عيناه العسليتان ويتمتم بدعائه الشهير الحمد لله الذي جعلني ثوريا وجعلني مناضلاً.

في ليالي الثوار تدور أكواب الخمرة على لعبة البوكر الشهيرة وتوضع آلاف الدولارات على الطاولة الخضراء رهانا على هذه اللعبة أو تلك حتى الصباح، حيث إن النضال والثورية يقتضيان اللعب بأموال الميزانية بهدف تنميتها بالطبع، وإن خسرها فكأنها حولت إلى بند ثائر آخر وكله لصالح هذه الأمة المعطاءة والشعب العظيم.

السادسة صباحا أو السابعة صباحا يضع رأسه على المخدة وينام ، فليل المناضلين طويل ، تخطيطا لعمليات البر والبحر والجو... ضد العدو الغاصب ما بين رشفة كأس وورقة جوكر.... أو حضن دافئ لرخيصة من الرخيصات.

لم تطق زوجته الاستمرار في هكذا حياة بل ضاقت ذرعا مما يفعله القائد الهمام : الله يكسركم، الله يأخذكم، الله لا يسامحكم..... تظل تدعو عليه إلى أن سئمت هذه الحياة.... ورفعت عليه دعوى طلاق للضرر...... أما أولاده فلم يطيقوا تحول البيت إلى (كرخانة) فلحقوا بأمهم..... ولم تهتز شعرة في رأس أبي الفانوس الأصلع، و لسان حاله يحاكي الحجاج و يقول: أنا أبن جلا وطلاّع الثنايا/ متى أضع العمامة تعرفوني .

عندما كان يصحو يوميا تكون الشمس قد انكسرت..... إذ إنه ما كان يصحو إلا بعد الظهر بكثير وقبيل المغرب ، (فيتمغط) أو قل يتجبّد لأكثر من نصف ساعة.....

ثم يهوي بيده على الزجاجة ليرتشف منها ما لذ وعُتّق.

أبو الفانوس بعد عشرين عاما من الانطفاء وبعد رجاءات كثيرة وتوسلات تنظيمية.... قرر له الأمين العام أن يتسلم قيادة القوات المجحفلة العابرة للقارات...... حيث إن إلحاح أبي الفانوس أيضا بأن يتسلم مهمة عمل كأقرانه من القيادات قد آتى أكله...... ولو بعد عشرين عاما من التثاؤب والشرب والنوم والنميمة والتزلف والدسائس..... وكان هدفه الأكبر أن يثبت لزوجته طليقته وأولاده أنهم خسروا بالابتعاد عنه فهو ما يزال قائدا لا يشق له عجاج...... في هذه الأيام المباركة التي تسلم فيها أبو الفانوس قيادة القوات المجحفلة العابرة للقارات كانت الاجتماعات تبدأ الساعة السابعة مساء، وهذا جليّ فليل المناضلين نهار ونهارهم سبات كما هو معلوم..... ولم تكن هذه الجمعات تنتهي قبل الثانية فجرا، حيث يبدأ موعد الاجتماعات المركزية على لعب القمار حتى الصباح .

ما الهدف أو النتيجة من تلك الجمعات التي يحضرها كل من هب ودب أو مرّ بمقر التنظيم الثوري العتيد... لا شيء، حيث لا هدف ولا يحزنون إلا قضاء الوقت والتسلي بعباد الله وخوزقتهم وتخريب عملهم فيضيع الصالح بعروى الطالح ويتسيد الأمين العام وأبو الفانوس.....

أبو الفانوس فوق كل ذلك أميّ جاهل لا يقرأ ولا يكتب حيث تعلم بصعوبة أن يوقع اسمه متظاهرا بخلفية معرفية واسعة في كتب الفقه وكتب النضال والسياسة الخارجية وعلم العير (جمع بعير) والذي يجمع في الخليج العربي على بعارين ....وكانت تخرج التعاميم التنظيمية من مقر التنظيم لتوزع باليد حفاظا على السرية، وذلك على الأعضاء المفتونين بعظمة وبصيرة الأمين العام ومدير ملهاه الليلي.

لأول مرة في حياته ، منذ عشرين عاما ، يصحو الساعة السابعة صباحا، لأنه سيقابل سفير أحدى الدول المناضلة والذي أصر على اللقاء صباحا في الثامنة... تمغّط أبو الفانوس بسريره ورفع اللحاف عن جسده وأطل من الشباك ليرى الشمس تسطع.... فانزعجت عيناه فغضب وقرر قرارا صعباً، لقد قرر محاربة الشمس؟! تلك التي تعمي العيون.

التقى سعادة السفير وهو شبه نائم في مقر التنظيم ، وما زالت الشمس تطارده فهي عدوه أكثر من العدو لذلك أصدر تعميما بمحاربة الشمس؟! وشكّل مجموعة من

الكتائب لمهاجمة الشمس، وفصل عددا من الكوادر لأنهم رفضوا الانصياع لأوامره السامية......

عقد الاجتماعات أو قل الجمعات المتكررة لوضع الخطة لمحاربة الشمس كما فعل (دون كيخوت) قبله حينما قرر محاربة طواحين الهواء ، ولما قال له أحد كوادر الحزب إنك مثل (دون كيخوت) تحارب طواحين الهواء غضب أشد الغضب قائلا : خسئت! يا عميل الأمريكان، أنا لا أقبل بعدو مثل الطواحين! أنا أحارب عدوا أكبر فلا تقارنوا بيني وبين ذاك الأحمق.

بعد عشرين عاما من السبات والنزق..... عشرين عاما من السكر والسرقة، عشرين عاما من لعب القمار وهتك الأعراض... يصحو أبو الفانوس قائد القوات المجحفلة العابرة للقارات صباحاً ليكتشف أن العدو الحقيقي للأمة هو نور الشمس... وليس من يسمونهم بالاستعماريين من معذبي البعارين ومنتهكي حقوقها الحيوانية .

يقرر الأمين العام بمشورة أبو الفانوس قائد القوات المجحفلة العابرة للقارات وجهابذة الحزب أن يتم عقد المؤتمر القادم للحزب أو التنظيم تحت عنوان: معا وسويا وجنبا إلى جنب لدحر الشمس ، وأن هذا جهاد نصر أو سهاد.

ما زالت الميزانية هدف أبو الفانوس الحقيقي الوحيد، وما زالت حربه ضد نور الشمس قائمة تتبلور بتقصد وتشويه وطرد كل واع أو فهمان أو ناجح أو مبادر أو منجز في الجبهة الثورية الموحدة لتحرير العير.

وعلى فكرة.... ربما فاتنا أن نؤكد لكم أن الجبهة الثورية الموحدة لتحرير العير- وهذا اسمها الرسمي- هدفها الرئيس هو تحرير العير (أو البعارين – جمع بعير) من نير الاستعمار ومن ظلم الإنسان والحفاظ على حقوقها الحيوانية ، وتحرير الأرض لتكون خالصة لها من دون الحيوانات الأخرى والبشر.

مدينة الأقدام السعيدة

كان جمال يسير جنبا إلى جنب مع فيصل، بهدوء وترو ينظران إلى واجهات البنايات العالية ذات الزجاج الملون، ويجيلان النظر بين السيارات التي تتحرك باتجاهي الشارع، وبين المشاة الذين يملأون ساحة المدينة الرئيسية.

اليوم هو يوم عطلة، والناس من مختلف القياسات يتجولون بين المحلات والحوانيت يتبضّعون ، فهذه عادة الكل في العطل وفي مواعيد الأعياد.

الأرصفة نظيفة وهي هكذا دوما، فلا أحد في المدينة تحدثه نفسه أن يلقي بورقة من نافذة السيارة أو يقذف بزجاجة مشروب على قارعة الطريق أو يلقي بعقب سيجارة في أصيص نبات أخضر.

من الطبيعي أن يسير جمال وفيصل في مثل هذه الحالة حفاة بلا أحذية أو شباشب أو حتى جوارب، وليس في ذلك أي مدعاة للاستغراب فعائلة كل من جمال وفيصل من أمهات وآباء وأخوة وزوجات وأولاد يفعلون نفس الأمر أي أنهم يمشون حفاة.

في مدينة الأقدام السعيدة هكذا هو اسم مدينتهم لا تجد محلاً للأحذية أبدا ، ولا تكاد تجد حانوتا لبيع الجوارب إلى أن غزا المدينة مجموعة من المتطفلين الذين تسببوا شيئا فشيئا بأحذيتهم الثقيلة في تلويث المدينة، وبأفعالهم المشينة بتخريب البيئة لقد تسببوا بامتلاء المدينة بالحجارة والحصى والزجاجات المكسورة على جانبي كل شارع وزقاق.

تدارس أهل مدينة الأقدام السعيدة الأمر.... فمنهم من كان رأيه أن يتم اتخاذ إجراء بحق هؤلاء المتطفلين الذين تكاثروا في المدينة فزادوها تلويثا وبؤسا، ومنهم من رأي أن

يتم التسامح معهم.

في ذاك اليوم كان الصديقان يمشيان حفاة الأقدام كعادة المواطنين الأصلاء، إلا أن انتشار الحصى والزجاج المكسور والنفايات في الشارع الخامس الذي وصلا اليه قد تسبب في إعاقة حرية الأقدام بالتنقل ، وفي هذا اليوم أصيبت قدم جمال بجرح تم التأريخ له، لأنه لأول مرة يصاب شخص من المدينة منذ ٢٠ عاما بجرح في قدمه فأصبح أهل مدينة الأقدام السعيدة يقولون: والله، كنت أشتري الملابس لعيد الأضحى يوم جرحت قدم جمال، والسيدة تقول: يا أختي، أتذكر يوم كنت أساوم على سعرعربة لابنتي الرضيعة يوم جرحت القدم اليسرى لجمال، وأصبحت طالبة الجامعة تقول: حصلت في الامتحان على علامة منخفضة في يوم جرحت قدم جمال (الله لا يقيمه) وهكذا.

منذ تاريخ جولة جمال وفيصل في المدينة للتسوق بزغ فجر جديد ، وانقسم أهل المدينة الى قسمين ، أحدهما مع المتطفلين وحريتهم وضرورة ارشادهم رغم مآسيهم منهم ، وثانيهما مع طردهم خارج حدود المدينة.

كما انقسمت المدينة إلى رأيين بشأن لبس الأحذية فقسم اقترح على مجلس المدينة أن تفتح محلات للأحذية وتترك حرية لبسها من عدمها للناس، وقسم أصرّ على التمسك بعادة الأقدام الحافية.

ومع هذا الاختلاف وانتشار المخلفات مثل الزجاج المكسور والأحجار وبقايا البزر(اللب) والفستق الحلبي والجوز وأعقاب السجائر تحولت المدينة من الشارع الخامس إلى معظم الشوارع من مدينة الأقدام السعيدة إلى مدينة الأقدام الجريحة حيث بدأت تتزايد أعداد المصابين بجروح وكسور مع تراكم النفايات وعدم التزام المتطفلين بقوانين وعادات أهل المدينة المنضبطة للقيم البيئية والاجتماعية.

فيصل صديق جمال الذي حمله للمستشفى عندما جرحت قدمه لأول مرة من عشرين عاما في المدينة كان يدرس الطب العام ، ومنذ تلك الحادثة التعيسة تحول فيصل إلى تخصص أقدام واكتسب خبرة زادت على خبرة (د.شول) الشهير بالعناية بالأقدام حيث إن قشرة الجوز الصلبة التي أعطبت رجل جمال كانت وبالاً عليه صحيا ، ومنطلقا للانتشار والشهرة له ، ولصديقه فيصل طبيبا.

ربّ ضارة نافعة هكذا يقول المثل العربي الأصيل فلأول مرة في المدينة يتم خفض معدل البطالة نتيجة ظهور أشكال جديدة من العمل مثل مصانع الأحذية، ومحلات الأحذية،

ومصلحي الأحذية، كما ظهر لأول مرة أيضا عربات مخصصة كبيرة ومتوسطة وصغيرة لجمع القمامة بعد أن كان كل صاحب محل أو شخص يتكفل من تلقاء نفسه بإلقاء قمامته في المكان المخصص لها خارج المدينة.

فيصل صديق جمال، جمال ما غيره الذي نزفت قدمه على درج المحكمة حيث كانا يتمشيان، أصبح أي فيصل طبيب الأقدام الأول في المدينة ، أما جمال الجريح فقد أقيم لقدمه تمثال ضخم على الجانب الأيمن لدرج المحكمة ، فأصبح كل منهما ناراً على علم.

بعد عشرين عاما من تلك الحادثة لم يعد أحد في المدينة يمشي حافيا بل أصبح يلبس (الجزمة) الطويلة العنق في الشتاء والحذاء قاسي النعل في الصيف، لماذا برأيكم؟ لأن مجلس المدينة استولى عليه و حكمه المتطفلون فأسقطوا القيم والعادات البالية التي تحث على النظافة وطهارة الأقدام واستبدلوها بلوبيات مصانع الأحذية ولوبيات جامعي القمامة التي غزت البلد حتى أصبح جامعو القمامة في كل حي وكل شارع وكل بناية تاركين للناس حرية رمي مخلفاتهم في أي مكان اتباعا لحرية القذارة أو لحرية إلقاء النفايات في كل مكان صحراء أم بستانا، والتي تم اعتمادها كمبدأ سامٍ من مبادئ حقوق الإنسان بطبعتها الخامسة.

الصوف والحرير وأثداء البقر!

تعد النجارة فناً قائماً بذاته،هكذا قال حامد لصديقه سائق الحافلة، إلا أن رائداً أصر على أن الفن الحقيقي هو في قيادة الحافلة بين الدروب الملتوية، وفي جدالهما اليومي حول نفس الموضوع يبرز كل منهما مزايا مهنته، وهما يجلسان على قارعة الطريق ساعة الغداء في الشارع الرئيسي وسط البلد.

حامد مدخن شره ورائد لا يطيق رائحة الدخان إلا أنهما يتشاركان مساحة صغيرة مجاورة لبائع القهوة في الرصيف ليتحاورا.

يوميا وفي نفس المكان يلتقيان ويتحدثان بضحكات صافية، ويجلسان ينظران للناس الذين يذهبون ويجيئون، وقد يتصادف خروج تظاهرة لحركة الحرير الإسلامي أو أخرى مناهضة للحكومة من ترتيب حركة الصوف الوطني.

وهما على جلستهما وحوارهما المتكرر حول النجارة وقيادة الحافلة ومتابعة الضحكات والناس والمظاهرات، كانا وفي مرات قليلة يلاحظان خروج مجموعات قليلة رافعة رايات أخرى مثل راية جبهة العناد الصافي أو حزب النغمات أيضا.

المئات الذين يخرجون في المسيرات أو المظاهرات يتحركون كالقطيع حيث إن الهتافات في مختلف المسيرات أو المهرجانات تكاد تكون متشابهة مع تغييرات شكلية ، ولا همّ لكل من حامد ورائد إلا التفكه على المظاهرات والمتظاهرين ، وهما جالسان على الرصيف يتحاوران في النجارة وقيادة الحافلات، فماذا يعني شعار لا حل إلا مع القائد أبو الحسوّن،

أو الهتاف القائل (يا جالس قوم قوم إحنا بدنا نعوم) ولا بحر لدينا.
السياسة داء قاتل هكذا قال حامد وهو ينفث دخان سيجارته، فرد عليه رائد: الأجدر أن تقول أنها حب قاتل، التفت إليه حامد وهو يخرج نفسا طويلا من لفافته وكيف ذلك؟ نظر إليه رائد منتفخا وقال :لأن من الحب ما قتل ! فرد صاحبه: وماذا يعني ذلك ؟ قال رائد: أن السلطة بغية المتصارعين من السياسيين يبدأون بالوعود الوردية للجماهير وينتهون بتفضيل الكرسي على الأمة جمعاء لا نستثني أحدا لا من حركة الحرير الإسلامي ولا من حركة الصوف الوطني أو حتى المنظمات الأخرى الصغيرة.
أجاب حامد:هكذا فهمت وأظنك تفهم السياسة والسياسيين لشدة اختلاطك بالناس وسماعك لما يقولون في حافلتك ليل نهار ، قالها بتهكم، فأجابه صديقه : وهل النجارة توسع مدارك عقلك أم تجعلك لا ترى الناس إلا أدنى من ال ٤٥ ألف نوع خشب المعروفة عالميا. وكان هذا ردا دفاعيا ليدرك حامد أنه قد تمادى فتراجع ، ليقول لصاحبه: دعنا من ذلك وهيا بنا إلى مطعم السعادة لنتناول طعامنا.
في الطريق من المدينة إلى القرى المجاورة ضمن المحافظة كان رائد يقود حافلته ويستمع إلى أغاني أم كلثوم، هكذا دوما... إلى أن صرخ فيه أحد الركاب هذا اليوم قائلاً : هيه، يا أبو الشباب حوّل لنا على الأخبار نريد أن نسمع أخبار الدنيا ، قالها وكأنه زعيم سياسي كبير لا تفوته شاردة أو واردة لا سيما وأن هاتفه النقال لم يتوقف عن الرنين من كم الرسائل الإخبارية التي تصل اليه.
نظر رائد في المرآة إلى الرجل فتعجب من شاب ضئيل الجسم وبهيئة لا يستدل منها على زعيم أو حتى فراش ويطلب بكل عنجهية أن يحوّل مؤشر المذياع ليسمع الأخبار وكأنه سيفوّت نصف عمره إن لم يستمع لها. تعلم رائد أن يختصر ولا يناقش الركاب فأمزجة الناس حادة في هذا الزمن وهذا البلد خاصة ، ولا داعي لاختبارها فغيّر الأغاني وفتح على الأخبار.
جاءنا الآن ما يلي:
قدمت كتلة حركة الصوف الوطني استدعاء لوزير الرفاه والسعادة للتحقيق معه في صفقة حَمالات الصدر. وأفاد مراسلنا البرلماني أن رئيس كتلة حركة الحرير الإسلامي قد رفض استدعاء الوزير المنتمي لكتلته كما رفض الاتهامات للوزير بشأن فضيحة حمّالات الصدر.

صرخ الراكب نفسه: ما هذا، كل يوم يزعجوننا بمشكلة حمّالات الصدر هذه في البرلمان. فقال زميله الراكب إلى جواره:ماذا تعنى حمّالات الصدر، قال الأول: بالعامية (السوتيانات) يعني.

فرد مع صرخة فرح: آه فهمت تلك التي تلبسها النسوة، فرد الأول : لا يا سيدي ، غير صحيح.

رد الثاني: إذن عن أي حمالات تتكلم الأخبار ؟ أجاب الأول: عن حمّالات أثداء البقر، البقر يا حبيبي. سكت الثاني ظانا أن الأول يهزأ به لا سيما وأن عددا ممن يستمعون للحديث عالي الصوت في الحافلة انفجروا بالضحك.

في الموعد المحدد حيث يرتاح كل من حامد النجار، ورائد سائق الحافلة على الرصيف في منتصف البلد أي المدينة الكبيرة التفت رائد إلى صديقه وقال: هل سمعت خبر حمّالات الصدر؟! فقال حامد ماذا تقول ؟ فكرر عليه السؤال، ولما ظهر منه عدم المتابعة السياسية لشؤون البلد ، أبلغة أنه بغير إرادة منه سمع الخبر والتعليق عليه وهو الذي طلق القنوات الإخبارية منذ يوم الجمعة الفستقي الذي توفي فيه ولده وعدد من أصدقائه غرقا في أحدى برك السباحة وحينها قامت المذيعة في المحطة المحلية بإعلان النبأ وهي تبتسم فطلق القنوات الأخبارية.

أما النجار حامد فكان ضيقه من الصراعات الحزبية والقضايا السياسية السخيفة التي يتعاطونها قد جعل منه شخصا عاديا يأكل ويشرب ويصرخ ويمرح ويجلس على المقاهي ولا يلتفت لدعاوي التكفير والردة والقتل التي بدأت تتعالى من حزب الانتقال المريح إلى الجنة أو حزب الموت المضمون، رغم أنها من الأحزاب التي لم تدخل الانتخابات ولكنها المؤثرة في الهوى الشعبي، ولدى المتعصبين.

قال حامد: هات ما عندك ، ما هذه الأخبار عن حمّالات الصدر. قال رائد: يا سيدي، هناك أزمة برلمانية واستدعاء وزير. قال رائد: وما لنا نحن بذلك؟ وما علاقته بالموضوع؟

قال حامد: رويدك ، فقط استمع ، فطأطأ حامد رأسه وبدأ يفتش في جيوبه عن علبة السجائر وأنصت، قال رائد : وهذه الأزمة تتمحور حول حمّالات أثداء البقر.... نعم البقر لا النساء.

ابتسم حامد مشدوها ، وتابع رائد كلامه بعد أن رأى أنه أثار صديقه.

طلبا فنجانين من القهوة بالسكر من كشك القهوة المجاور ، وأكمل رائد سائق الحافلة

حديثه: اختلف مجلس الشعب حول حمّالات صدر البقر، فقال حامد وهو يشعل سيجارته: وهل للبقر حمّالات صدر أصلاً ؟

قال رائد: إذن لابد مما ليس منه بد ، سأبدأ لك القصة من أولها، ما دمت لا تعلم، يا صديقي العزيز، لقد أفتى عدد من الأحزاب في بلدنا بحرمة عري البقر ، حيث قرروا أنه يجب أن تخفي الأبقار أثداءها ولا تعرضها للعامة لا سيما وان البقر عندنا يشكل ثروة قومية ولذا علينا الحفاظ عليها وعلى عفتها.

فرفع حامد حاجبيه عاليا وأخذ نفسا وقال: يعني بدأ فرض الحجاب على البقر!؟

تابع رائد قائلا: انقسم المجلس حسب الأحزاب أوالتنظيمات إلى موافق أو رافض لمشروع قانون تغطية أثداء البقر، الرافضون بحجة أن البقر ليست كالبشر ، والقابلون بحجة أن حقوق البقر تتساوى مع حقوق البشر.

قال حامد : أكمل ، ما شاء الله.

قال رائد : وبعد حوارات وجدالات طويلة وافق البرلمان بالأغلبية على إقرار مشروع قانون الحمّالات.

قال حامد: إذن انتهينا.

قال رائد: بل بدأنا، وسّع صدرك، وانتقل الخلاف بين الأحزاب ليس على مشروعية لبس الحمّالة، فالمعظم وافق عليها، وإنما على لونها فمثلا أصرت حركة الصوف الوطني على أن يكون لون حمّالة الصدر هو اللون الأسود لأنه شعارها ولأنه لون غالبية البقر، أما حركة الحرير الإسلامي فأصرت على اللون القرمزي و الفستقي معا لأن اللونين يشكلان لون علمها، وطالبت جبهة العناد الصافي بدعم حركة الحرير الإسلامي في انتخابات الجامعات، أما حزب النغمات فبقي على الحياد.

قال حامد : وهل هذه مشكلة أيضا؟

قال رائد: اسكت كي لا يسمعك أحد ويتهمك بالجهل السياسي.

في اليوم التالي وعلى صفحات الجرائد وبالخط العريض ظهرخبر مفاده : مجلس الشعب يوافق على تقسيم الوطن جغرافيا وإلباس البقر حمّالات للأثداء باللون الحزبي بحسب سيطرة كل تنظيم على البقعة الجغرافية وذلك تكريسا للديمقراطية.

كان صاحب كشك القهوة الواقف قربهما يقرأ الخبر بصوت عال ليُسمِع كلا من رائد وحامد.

قال حامد: ها هي المشكلة حلت، وخلصنا من هذه المعركة.

رائد: لا أظن.

حامد: لماذا؟

رائد: لأنه على حد قول المذياع برزت مشكلة جديدة وخطيرة.

حامد: ياساتر ، وما هي ؟

رائد: المجلس يناقش اليوم هل يجوز وضع إطار حول صورة الشهيد أم لا ؟ وهل يجوز وضع خط أسود على صورة المتوفى العادي أم لا ؟ وما حجم الإطار الشرعي؟

حامد: ألم أقل لك إن الحديث في النجارة أفضل يا حبيب الشعب !

دموع في الرمال !

كانت تعاني من آلام لا تحتمل في الظهر ، فإن نامت على جنبها الأيمن تألمت وإن نامت على جنبها الأيسر تألمت، فتدمع عيناها.... وإن أراحت ظهرها على السرير هبطت عليها الهموم كالصاعقة لأن آلام الظهر كانت عندها لا تحتمل .

هي من النوع الذي اعتاد النوم ظهرا ليس لأنهم قالوا إن القيلولة تطيل العمر ولو لربع ساعة بل لأنها اعتادت ذلك عندما كانت تعمل في أحدى دول الخليج الفارسي أو العربي لا فرق... حيث الجو الحار يضعف الجسد ويجعله في شوق متصل للراحة.

هي من العائدين إلى أرض الوطن مع السلطة الفلسطينية، عادت وزوجها الذي دخل برقم وطني على مرتب جيش التحرير الفلسطيني الذي تحول إلى الأمن الوطني في فلسطين، قال لها إنه قرر ترك عمله في السعودية والعودة للوطن لأن الواجب يناديه بصوت عالٍ، وهي كزوجة مخلصة تحب الوطن لم يكن لها من رأي، بل استجابت له وللنداء مضحية بحياة مريحة ماديا ونفسيا بل واجتماعيا حيث إن عائلتها تقطن في الرياض منذ زمن بعيد.

عندما استقرت في غزة شعرت أنها اتخذت القرار الصائب فسرعان ما التحقت بالشرطة النسائية وهي تبكي فرحا، وكانت من كادر الحلم الفلسطيني الذي سيجعل من غزة سنغافورة العرب كما قال الرئيس الراحل ياسر عرفات.

كانت تزهو ببزتها الزرقاء وتتفاخر أن الله منّ عليها بنعمة العودة إلى غزة وبالتحديد في منطقة الرمال الجنوبي حيث سكنت وأنجبت.

ثلاثة من الأولاد أنجبت، ورعتهم حتى دخلوا المدرسة الابتدائية، وما زالت تتفاخر بأنها في وطنها... ناهدة... وهذا كان اسمها لم تنتم لتنظيم فلسطيني رغم انتماء زوجها لأحد التنظيمات الصغيرة، فكثيرا ما قالت له في حواراتهما الليلية أن الوطن يحتاج الجميع وما هذه التنظيمات إلا وسائل وقد تفشل الوسائل إلا إن الوطن لا يقبل إلا النجاح وأصرت على ذلك فلم تنفع معها المغريات من هذا التنظيم أو ذاك.

في غزة حيث تعاظم دور التيارات الدينية المعتدلة منها والمتطرفة.... بدأت مجموعة من المنقبات يتعمدن غزو بيتها ويهددنها بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم تتحجب وهي محجبة أصلا ! وإن لم تصلّ وهي تصلي؟! تصلي قبل أن ترى المنقبات الشابات نور الشمس... فكيف يستقيم ذلك؟! لم تفهم ناهدة الوطنية المسلمة المحافظة هذه المعادلة البغيضة!! فصارت دموعها تسبق كلماتها، تبلل وجهها والمخدة.

كانت تتجنب تلك البنات المنقبات حتى بعد أن اتهمنها بالفسوق والفجور لأنها تعمل مع السلطة تارة أو لأنها لا تصلي معهن أو تحضر ندواتهن الدينية تارة أخرى، وناهدة تقول في سرها، وحين كل صلاة: الله يهديهن.

في فلسطين هجمت الأمراض على ناهدة كوحش كاسر من ضغط وسكري وبواسير وأخيرا آلام الظهر القاتلة التي لم ينفع معها تغيير المخدة... ثم الفراش ثم السرير ثم النوم على الأرض فعودة للسرير لتكتشف أن نصف أسباب هذه الأمراض منشأه نفسي مرتبط بالضغوط الشديدة نتيجة قسوة الحياة من جهة ونتيجة الضغوط التي مورست عليها من تلك النسوة الوصيات على الإسلام اللواتي شوهن سمعتها لمجرد رفضها الانتماء لتنظيمهن.

جلست ناهدة على حافة السرير تبكي، وتركت زوجها ممدداً إلى جانبها محاولة أن تتخطى آلامها ببعض التمارين كما تفعل كل ليلة ذهابا وإيابا من الحمام الذي تدخله لثلاث أو أربع مرات لتتخلص من الماء الزائد في مثانتها.

لكن في هذا اليوم كان القلق شديدا.... فلم تنم الليل بطوله من آلام الظهر، و حيث استولت مليشيات الانقلاب الدموي على غزة، وأصبحت المنقبات اللواتي كن يترددن على بيتها شرطيات في السلطة التي طالما اتهمنها بالفسوق لانتمائها إليها..... فانقلبت الآية الآن وناهدة تجلس في بيتها لرفضها التعامل مع الانقلاب..... وأولئك المنقبات يوزعن الفتاوى بالقتل، ويحرضن ويعتقلن ويعذبن كل من كفرّ أو اتهم بالردة من عباد

الله المسلمين في غزة.
آلام الظهر تشتد على ناهدة، والدموع تنهمر... اصطكت أسنانها وهي خارجة من الحمّام، فمر في مخيلتها شريط طويل من الأيام الحلوة والأيام المرة من السعودية فمصر فغزة.... ومن لقائها بزوجها لأول مرة في دار خالها في الرياض إلى الزواج فقررا العودة.... وبدأت تتذكر تفاصيل ولادتها لأطفالها الثلاثة، وكيف كانوا متميزين في مدارسهم في العلم والأدب، وتبسمت عندما استحضرت علاماتهم ومنظرهم الجميل وهم يركضون عائدين بعيونهم الخضراء وشعورهم السوداء وأجسادهم الغضة وأحلامهم الوردية.
انتقلت إلى الصالون ويدها تلامس منتصف ظهرها من الألم، حيث سمعت جلبة عند الباب وأصواتا وصراخا مرعبا ويجيء صوت جديد متجدد : افتحوا الباب ، افتحوا وإلا؟! صحا زوجها وصحا الأبناء مع تعالي الأصوات...... وبدأوا يبكون.
لم تدر ماذا تفعل ، فإذ بالمهاجمين من المقنّعين يكسرون الباب ويقومون بتفتيش البيت ليقلبوه رأسا على عقب بحثاً عن السلاح وعن مطاردين؟؟! من حركة فتح ، كما قالوا لها ولزوجها بلهجة فظة وشتائم على الله والآباء ليس فيها أي رائحة تربية أو أدب أو قيم.
ولما لم يجدوا شيئا اختطفوا طفلين من أطفالها بين صرخاتها وبكائها وعويلها.... وركبوا الجيب المسروق، لينطلقوا بسرعة جنونية وكأنهم اعتقلوا أرئيل شارون..... وذهبوا باتجاه (السرايا) مقر السلطة في مدينة غزة.
لم ينفعها عشقها لفلسطين ولا تضحياتها ولا تدينها ولا توسلاتها ولا دموعها ....من منع المقنعين أن يقتلوا أكبر أبنائها بإلقائه من على سطح احد أعلى الأبراج في مدينة غزة..... ورغم أنهم أطلقوا سراح الثاني إلا أنهم قالوا له: (روح احكي ما رأيت).... وقل لامك أن (الشيخات) يسلمن عليها.
عندما انطلق الفلسطينيون باتجاه معبر رفح... يكسرون الحائط الإسمنتي، ويلقون بالحجارة في وجه من يمنعهم.... ويصرخون ويهرولون في كل اتجاه خارج القطاع، أو يجرون أرجلهم جرا ....لم يكونوا يبحثون عن الغذاء فقط بل كانوا يبحثون عن الحرية من حصار مزدوج صهيوني و"وطني" اسلاموي.....
ركضت ناهدة ذات الدمع السخي منذ استشهاد ولدها على يد العصابات الدموية، ركضت وركض زوجها وولداها كقطيع شريد... شرد من عذاب طويل وألم ذوي القربى...

تبحث... كما غيرهم... عن شيء آخر هو الأمان.... حاملة ذكرى ولدها الشهيد الذي ألقي من سطح أعلى البنايات وحاملة ذكرى سنوات الحب والحرب في حي الرمال الجنوبي....الوجهة معروفة مسبقا... إلى قرية الشيخ زويد في سيناء كمحطة أولى... حيث يقطن بعض أقرباء زوجها الذين تستروا عليهم عدة أيام، إلى أن هربوهم إلى القاهرة.

في مطار ستوكهولم بمجرد أن حطت أقدامها المتعبة أرض المطار... مزقت ناهدة جواز سفرها وسال الدمع البارد على الوجه الصبوح .... مزق زوجها وولداها جوازات سفرهم أيضا..... وسلموا أنفسهم للشرطة السويدية.... رغم آلام الظهر والدموع وكثير من الحرقة والآهات...... كانوا بعد الانقلاب الدموي وممارسات الميليشيات السوداء الوحشية، وبعد مقتل ابنها الجميل ، كانوا قد قرروا الالتحاق بالآلاف الذين هاجروا من قطاع غزة إلى أوروبا.

المراسل الثوري

بعد عشرين عاما من العمل مراسلا... بدا له ضرورة أن يترقى ، ولم لا فمن حق كل إنسان أن يترقى! ربما أشعل هذه الفكرة في رأسه صديقه الحميم أو زوجته، الله أعلم! المهم أن الفكرة اختمرت في رأس أبوالعوض.

دخل إلى المدرسة التي يعمل بها في الصباح المبكر كعادته ، ولكنه هذه المرة كان يلبس بدلة، وهو لم يلبس بدلة أبدا في حياته من قبل . إذ إنه لم يغير بنطاله الأخضر وقميصه الأصفر إلا مرة أو مرتين في الشهر، فيلبس عوضا عنهما بنطالا بنيا وقميصا أبيض، ربما لدواعي الغسيل للطقم الأول.

في هذا اليوم الأغر ارتدي أبو العوض بدلة خضراء وقميصا أبيض مع ربطة عنق حمراء جعلت كل تلميذ في ساحة المدرسة يراه أما يبتسم ويركض مسرعا ومبتعدا، أو يضحك عاليا.

دخل أبو العوض على المدير دون أن يقرع الباب... فانتبه المدير الذي كان قد دخل المدرسة دون أن يفتح له أبو العوض باب مكتبه كالعادة ... رفع رأسه الكبير، وعدّل من وضع نظارته، ليهتز جسده الممتلئ مما رأى!!

اندفع بكرسيه للخلف باسطا يديه تعبيرا عن الاستغراب والتعجب ، وبدلاً من أن يوبخ المراسل كما كان يخطط لتقصيره في فتح باب مكتبه، ومعاجلته بفنجان القهوة، وبعد أن تأمل الرجل أمامه مليا..... كتم ضحكته، وصرخ قائلا: ما هذا يا أبوالعوض ؟ هل أنت ذاهب لسهرة، ام لاجتماع مع رئيس الوزراء، أم ماذا ؟

كان أبو العوض قد استجمع شجاعته وحدد ما سيقوله مسبقا، فلقد كان يتمرن على هذا الموقف طويلا في البيت .

قال أبو العوض بعد أن عدّل من وضع ربطة عنقه الحمراء: أريد أن أكون مدرساً، أن أترقى لمدرس.

المدير أبو جابر غير مصدق ما يسمع : نعم، ماذا قلت ؟

المراسل أبو العوض بثقة : أريد أن أكون مدرساً ، كل العالم تترقى وأنا لعشرين سنة مازلت مراسلا ومن حقي أن أترقى.

المدير أبو جابر: هل أنت (صاحي) يا أبو العوض أم مريض... دعني أقل لك اذهب واعمل لي فنجان قهوة، وبلاش تخاريف.

كان أبو العوض يعمل مراسلا للمدير في مدرسة صغيرة بإحدى القرى ، ولأن عدد الطلاب في المدرسة كان محدودا إذ لم يتجاوز العدد ١٠٠ طالب في أحسن الأحوال ، فإن طاقم المدرسين تشكل من أربعة فقط وسكرتير ومدير، ومراسل كان يقوم بدور الحارس والفراش أيضا.

أبو العوض هو مراسل المدرسة يعرف التلاميذ وآباءهم وأمهاتهم فما أن يصل طالب جديد للمدرسة حتى يتعرف عليه أو يعرفه سلفا باسم أبيه أو أمه.... لذلك فإن أبا العوض كان يعكس شخصيته على التلاميذ جميعا لاسيما وهو أول من يرحب بهم عند دخولهم وآخر من يرونه في الرواح.

في القرى تمر الأيام رتيبة..... لا يسمم أجواءها أو يخرق الصمت في ليلها إلا حادثة عارضة هنا أو موقف هناك ، لذلك كانت الأقاويل والأحاديث الفارغة والمليانة تستهلك الوقت والذهن و تنتقل مثل النار بالهشيم فتصبح الحبة قبة، وكان أبوالعوض من أصحاب هذه الثقافة لا سيما وأنه يعمل في مدرسة، أي أن لديه مخزون حديث لا ينضب كما يرى يؤهله للتقدم.

أبو العوض الشاب الثلاثيني الهادئ لم يكمل دراسته الابتدائية، لكنه يعرف كيف يقرأ ويكتب وإن بصعوبة . وفي المدرسة التي عمل بها كان يتدخل لدى المدرسين فيصلح كراريس التلاميذ خاصة في الصفوف الأولى، أو يطلب زيادة علامة لهذا أو ذاك أو يتدخل في حل بعض المشاكل بينهم وبين المدرسين... وكان الأساتذة يتعاملون معه بمودة مراعين بساطته إن لم نقل جهله ، ومراعين رغبته في التعلم

كما بدا لهم، أو في مد يد المساعدة من باب النخوة.
مدير المدرسة أبو جابر كان يمتعض من تدخلاته، فكان ينهر أبو العوض، ويمنعه من التدخل في شؤون المدرسين وتدريسهم وعلاقاتهم بالطلاب، لأنه كان يعطله عن عمله الأساسي كمراسل للمدير مختص بفتح الباب وإعداد القهوة والرد على الهاتف ومسح المكتب وفتح الستائر... هذا من جهة، ومن جهة ثانية يتدخل فيما لا يعنيه.
وماذا بعد؟
هكذا كلمت محدثي حاثا إياه أن يكمل قصته.
فقال صديقي: لقد حصلت مشادة بين المدير والمراسل وارتفعت الأصوات التي اختلطت بأصوات المدرسين الذين دخلوا غرفة المدير يستطلعون الأمر الجلل، والذي انتهى بطرد أبو العوض من المدرسة.
قلت لصديقي: هذه طرفة؟! ولكن ما علاقة هذه القصة بوضعنا السياسي والتنظيمي الحالي، لقد قلت لي أنك ستقص عليّ قصة ذات صلة، ولكني أراك ابتعدت كثيرا، والله إن قصص كليلة ودمنة أكثر قربا لواقعنا من قصتك هذه غير ذات المغزى.
قال صديقي: اهدأ قليلا... وجذبني من يدي خارجا، حيث كنا نجلس في غرفة الانتظار الفارهة لقائد فلسطيني كبير، هكذا يقولون في الإعلام على الأقل قائد كبير وأنا لا أعلم كبير في ماذا أو على من!
كان في يدي ويد صاحبي أوراق سنقدمها للقائد الكبير ليوقعها.... أخذني صديقي معه خارج قاعة الانتظار باتجاه باب الخروج.... فاستغربت!!!
وقلت له: لقد جئنا لمصلحة نريد أن نقضيها من القائد الكبير، وأنت تحدثني بقصة غير ذات صلة.... ثم تريد أن نرحل دون أن نحقق ما جئنا لأجله؟
قال صديقي: تذكرت مدى حساسيتك واندفاعك، وأخشى إن ربطت بين قصتي والواقع تنفعل انفعالا يخرجك عن طورك، وكأنني أخطأت بذكر هذه القصة لك.
قلت له: لم أفهم شيئا !!
نظر في وجهي نظرة شفقة وكأنه متردد بين أمرين.... حسم أمره، وعاد ليجذبني

من يدي عائدا باتجاه غرفة الانتظار ومكتب القائد الكبير.

استغل ذهاب المرافق الواقف كالصنم بباب القائد الكبير لإحضار كوب من القهوة لنفسه، وأسرع ليفتح الباب بسرعة قبل عودة المرافق... وقام بإلقاء السلام على القائد الكبير في المكتب الفاره قائلا: مرحبا أخ أبو العوض !!

وبدأ يتقمص دور الزعيم!

كان يدعي التواضع فيتحرك بين الناس والجلاّس يتكلم في مختلف الأمور، فإن تحدثتم في الفلسفة فهو أرسطو أو سقراط وإن تحدثتم في الفكر فهو زكي نجيب محمود أو محمد عابد الجابري وان ذكرتم علم الإدارة فهو (بيتر دراكر) وان كان لكم في الطبخ مخاض فهو الشيف رمزي، وحتى لو عرجتم على الأسلحة النووية، فهو.....: من ذاك الذي تسلم جائزة نوبل؟! قال أحمد أثناء اجتماعه بأبي خالد وعدد من الزملاء، فحك أبوخالد رأسه مليا وقال إنه الدكتور فرج النوري العالم النووي الشهير، أليس كذلك؟

وطبعا بدأ الحضور من ذوي الرؤوس الواطئة يكيلون المديح لأبي خالد مليا على ذاكرته الذهبية وعقليته اللولبية، وان كنت أظن أن أحمد يقصد د.أحمد زويل العالم المصري الشهير وهو لا ينسى اسمه لأنه على نفس اسمه أي أحمد حيث لا يوجد عالم أو حراث اسمه فرج النوري.

جلس أبو خالد بعد طول صبر وكثير من الدسائس والتزلف، وقليل من الحنكة، وكثير من المكر على مقعد المدير في شركة الأركان الحمراء.

منذ الصباح الباكر في يومه الأول بدأ يتحسس بأصابعه المقعد الوثير تارة، يضغط عليه، وتارة يربت، فهو - أي الكرسي- كان حلم حياته وقضى في سبيل الوصول إليه زهرة شبابه، ولم يطل أبو خالد تلمّس الكرسي ليبدأ في رش العطور عليه وعلى المكتب العريض أمامه الذي يضم الكثير من الأدوات المكتبية ولكن بلا ورق أو أقلام ، فأبو خالد يكره القلم بدرجة كرهه للقراءة وهو الذي ترك الصف السادس لعدم قدرته

على التركيز و لتكرار سقوطه.

أبو خالد من القلائل الذين عاشوا جو القومية الطاغي حتى وهو في شركة لا علاقة لها بشكل مباشر بالسياسة كان يملأ فمه بالكلمات الطنانة والعبارات الرنانة، وكثير من الشتائم الاشتراكية والصراخ ليظهر للآخرين في الشركة المرتبطة بحزب سياسي فاشل، قوته وهيبته المصطنعة، وكان أحيانا يحاول أن يرسم صورة المتواضع فيكلم هذا ويمازح ذاك ويسب الدين في حضرة الآخر ويشتم الأعراض في حضرة غيرهم.

قال أحمد لزميله وهو يرى أبا خالد يكاد يطير طربا من جلوسه على كرسي المدير: إنه رجل حقود لم يجعل لأحد من نصيب أمام المدير العام للشركة فشعوره العميق بالنقص جعل عنده غيرةً طاغية كان يغطيها بالضحكات البهلوانية وإظهار الإخلاص المصطنع للمدير العام، أو الصراخ وإظهار التطرف.

انزعج أبو خالد من الهمسات في حضرته فوجّه نظرة كالسهم الثاقب باتجاه أحمد وكأنه يقول: اصمت فأنت في حضرة الزعيم الذي عنده تطأطأ الرقاب ويصيخ الخلان السمع، وعلى عتبة مكتبه يشتعل البخور ويلمّع البلّور.

أبو خالد هذا يعتبر ابنه الصغير خالد زهرة حياته رغم أنه ولد أبلها عافانا الله وعافاكم، وأسماه خالد تيمنا باسم ابن جمال عبد الناصر تشبها بالزعيم.

وعلى عادة العرب المشرقيين فإن عظمة الشخص لا تكتمل إلا بأن يتسمى ب(أبو) شيء ما ، ويحبذ أن يكون هذا الشيء اسما معرفا باللام مثل أبو الكارثة وأبو المصيبة وأبو الفاروق وأبو الشباشب لا فرق، ما يعد تفخيما بالنسبة له، لذا كان كل من ينادي أبو خالد وأحيانا (أبو الخالد) باسمه الأول تصب عليه اللعنات وخاصة الآن بعد أن أصبح مديرا في شركة الأركان الحمراء.

في الاجتماع الذي دعا له و الذي ضم عددا من رؤساء الأقسام تحت إمرته تحدث رؤساء الأقسام واحدا واحدا، فكان كلما تحدث أحدهم يعلق عليه أبو خالد وكأنه مدرس أمام تلاميذ او شيخ طريقة أمام مجموعة من المريدين.

كنت أنا ووديع في لبنان وكان يعمل (عندي) في قسم الإنتاج بالشركة، وكان فؤاد صبيا عندي في مكتب القاهرة علمته كيف يأكل بالشوكة والسكين،..... وكنت وكان....... حتى لم يبق أحد من المجتمعين إلا وكان يعمل تحت إمرته وتعلم أن يغسل

وجهه أو يتنفس على يديه الكريمتين.

ضحك أحمد في سره وصمت ونظر إلى الأعلى ،ورغم تفاهة وعدم مصداقية ما يقوله أبو خالد إذ إنه كان زميلا لغالبية الحضور الذين عمل هو معهم ولم يعملوا هم عنده، بل وبعضهم كان مسؤولا عنه، إلا أن الحضور كانوا يصادقون على كلامه المجوج، ويضحكون كلما ضحك أو يولولون كلما كشّر.

بعد ساعتين من بدء الاجتماع الذي تأخر أكثر من نصف ساعة ليفتتح ، دخل الحضور في صلب الاجتماع الذي كان منعقدا لعمل عصف ذهني حول كيفية تسويق منتج (الشامبو) الجديد، أي أنه تم هدر ساعتين ونصف من وقت الشركة، والوقت عند الشركات يعني المال إلا أنه عند أبي خالد فهذا وقته، فالشركة هو وهو الشركة حتى لو خسرت مليونا من الدراهم.

كان الاجتماع منعقدا في مكتبه مع انه كان من المعتاد أن تنعقد الاجتماعات في قاعة الاجتماعات المجهزة فنيا وصحيا، ولكن رغبة أبي خالد أن يظهر السيطرة والهيمنة كانت تقتضي أن يجلس على كرسيه الوثير المبخر والمعطر، وكان يقتضي منه أن يصرخ في هذا ويشتم ذاك، ويكذب في الكلام، ويصنع الفوضى –عادته الأثيرة– ليبقى كمن يستبصر المشاكل عن بعد ويقوم بحلها.

بعد أربع ساعات مملة في مكتب مغلق النوافذ، وبستائر ذات لون غير متناسق مع لون الكنبات، ويعبق برائحة السجائر الرخيصة، وبين أكواب القهوة والشاي الوسخة ، مال أحمد على الزميل الجالس على يمينه قائلا: (تمسكن حتى تتمكن) فرد عليه قائلا: وها هو يأتي (نافشا ريشه) ويلقي علينا الحكم والعظات معتقدا أن كرسيه الجلدي الأسود هذا بطاقة مروره إلى نادي الجهابذة.

فسمعتهم رائدة زميلتهم في الجوار بالاجتماع التي لم تتماك نفسها من الضحك الخفيف حينما سمعت كلمة جهابذة، لتقول لهما بصوت خفيض: من أي قاموس جئتم بهذه اللفظة؟ انتبه أبو خالد أن هناك كلاما على كلامه في المكتب الفسيح، فوقف محتدا وراء مكتبه وصرخ: من يتكلم في حضرة المعلم فهو فاشل ومن يتفوه في حضرة الزعيم فهو ساقط وكررها ثلاثا.

احمرّ وجه أحمد وزميله وصعقت رائدة فلم يكن يدور بخلدها أن هذا الزميل الذي أصبح بين ليلة وضحاها مديرا يتحول إلى (بجح) وقح إلى هذه الدرجة فأيقنت

هي الأخرى أن النباتات المتسلقة تغطي جمال المبنى وتحجب النور عن الحقائق وصمتت مكرهة.

تواصل الاجتماع الذي تكلم فيه العشرون الحاضرون بما يقل عن عُشر ما تكلم به أبوخالد، الذي أضاف لمفاهيم الزعامة-كما يفهمها- غير ما سبق رغبته بأن ينعت بالشيخ أبو خالد لماذا؟ لأنه ذكر في معرض حديثه التافه الطويل أنه شيخ ابن شيخ وجده كان شيخا أزهريا مضيفا: رضي الله عنه وأرضاه، وأضاف أنه كان شيخا مجاهدا ورغم أن لا علاقة لتسعين بالمائة مما يقول بمضمون بنود الاجتماع إلا أن الحضور بمعظمهم كانوا يهزون رؤوسهم وراء كل جملة أو كلمة تخرج من فمه الشريف ولسانه الخفيف.

لسوء حظ أبو خالد أن المدير العام كان يراقب الاجتماع من غرفته حيث إن مكتب أبو خالد الجديد كان به (كاميرا) ضمن دائرة مغلقة لم يكن أبو خالد يعلم بوجودها، وبعد الساعات الخمس المملة والعرجاء التي استغرقها الاجتماع والتي مثلت هدرا للوقت والجهد والموارد كان الشارع الصديق الوحيد لأبي خالد.

ليس للفقير أن يحلم!

لم تكن تملك ثمن تذكرة الحافلة فاضطرت للسير مسافة طويلة حتى تصل إلى منزلها في أطراف المدينة. في الليل الماطر وحيث أضواء الشوارع خافتة تهجم الذكريات إلى الرؤوس المنكسة المثقلة.

رذاذ خفيف يتساقط بخفة اليعسوب ، وهي تجهد نفسها بالسير السريع محاولة أن تتجنب المطر تحت مظلات البيوت أو في مواقف الحافلات.

أحيانا كانت تسير على الرصيف وأحيانا يتقلص الرصيف أو يختفي فتضطر للمشي في عرض الشارع، وكلما سمعت صوت سيارة أو رأت أضواءها خرجت من الإسفلت باتجاه التراب المشبع بالماء.

بعض البرك المائية الصغيرة تشكلت في الحفر المنتشرة في الشارع المؤدي خارج المدينة، فلم يسعفها حذرها من رشاشات الماء التي كانت تنطلق كلما قدمت سيارة مسرعة باتجاهها.

إحساس بالقهر والضعف هو الشعور الذي راودها بعد أن اتسخت ملابسها الصفراء المشوبة بالحمرة تلك التي استعارتها من جارتها لتستطيع أن تغير الطقم الأزرق الوحيد الذي ذهبت فيه إلى الشغل مرارا وتكرارا.

شتمت المطر والشوارع والحافلات والمشي وأوضاعها البائسة وأسعار اللحمة المرتفعة والفضائيات والدعايات، ولكنها ما زالت تحلم بالغد والتغيير وخطيبها والمستقبل الجميل ورفقة آنسة مع زميلاتها في العمل وهدوء البال والأحوال.

أم بلا معيل لها غيرها وخمسة أخوة صغار تركهم والدها لترعاهم هي وحدها، وكأن القدر كتب عليها أن تكون أما لإخوتها وأما لأمها المقعدة أيضا.

في وضع آخر كانت لتحب المشي ، فهي رشيقة ممشوقة القوام كثيرا ما تهتم بالحمية ونوع الغذاء خاصة ذاك الياباني المدعو (مايكروبيوتك) ، ولا تمل من التمارين الرياضية ، ولكن في هذه الليلة الوضع مختلف.

في نهاية الشهر يكون المعاش الذي تقبضه قد ودع جيوبها واستدانت فوقه ما يماثله ولكن لا تفارقها البسمة وسلسلة الأحلام والحمد لله. في هذا اليوم عندما بحثت عن ثمن تذكرة الحافلة في حقيبتها لم تجد المبلغ، وخجلت أن تطلبها من أحد زملائها فعزمت على المشي.

شقراء ذات عيون خضراء في بداية الثلاثينات عزباء ذات قد نحيل ، طويلة بأسنان ذات اصطفاف جميل لا يحتاج لعمليات جراحية أو تقويم أسنان ذات بسمة رائعة وتقاطيع وجه لطيفة غير بارزة، بلا حبوب أو بثور، وعينان شبه منحرفتان كعيون اليابانيين ، وهي بذلك تعد أنموذج المرأة الجميلة.

وقفت السيارة بهدوء في جانب الشارع الأيمن، ونزل منها ثلاثة شباب ركضوا كالبرق، واتجهوا نحو الصراف الآلي حيث كان رجل مسن يسحب مبلغا من المال.... وبحركة سريعة استطاعوا أن يسرقوا المبلغ من بين يديه ويلقوا به أرضا ، وأن يركبوا سيارتهم وينطلقوا بسرعة.

كانت تسير في الطرف الآخر من الشارع ، وهي تحدث نفسها كيف ستحقق طلبات أخوتها الصغار وهم ثلاثة دون العاشرة، وأما الاثنان الآخران فكانا في العشرينات ولكنهما لا يتحملان المسؤولية حيث تكثر طلباتهما ويمتنعان عن العمل ، ولا ينفكان يترددان مع أصحابهما بين المقاهي والمجمعات التجارية غير آبهين بآلام أمهم أو جهد أختهم.

كانت واقفة في زاوية مظلمة من الشارع على عكس اللصوص الثلاثة. أثناء لحظات السرقة... كانت شاردة الذهن ولكن لا تفارقها الأسارير المنفرجة وهي تدير الأفكار في رأسها المنكس تتتبع مواطئ قدميها كي لا تزل، إلا أن صراخ الرجل المسن نبهها فالتفتت نحو مصدر الصوت..آه، ماذا يحصل؟ .

تفاجأت بالحركة والصراخ إلا أن المفاجأة الكبرى .... أنها تعرفت على أحد اللصوص الثلاثة............ لقد كان أخاها الكبير. تعرفت عليه رغم القناع الذي يرتديه

من السروال الذي يلبسه فهو الذي اشترته له منذ أيام وعرفته من حركاته البهلوانية الظريفة التي يستخدمها في البيت، ولم يتورع عن استخدامها في خفة الحركة التي سرق فيها المبلغ ويغطي عليه الاثنان الآخران.

- السلام عليكم .
- وعليكم السلام .
- محمود موجود ؟
- لا. خرج إلى السوق .
- لطفا، قولي له: جميل مر عليه .

أعجبتها كلمة لطفا ، وتكررت زيارات جميل إلى بيت أبو صلاح -الله يرحمه-، وتكررت لقاءاتها الخاطفة به، وتبادلا معا النظرات والابتسامات ومجموعة من الجمل والمجاملات حول الطقس والشغل والحافلات وارتفاع الأسعار والجيرة وأفضل محلات الملابس، والمايكروبيوتك وفول الصويا والتوفو....... حتى جمعتهما الألفة والتفاؤل بالمستقبل.

عيون وادعة ولكنها حيرى ، ورغبة في المشاركة والتواصل ، ومشاعر مودة سرعان ما جمعت بينها وبين جميل ولم تنقض أشهر خمسة حتى خطبها لتبدأ رحلة الأحلام اللذيذة.

كان كل من محمود وجميل وأخيها المراهق أيضا هم ثلاثي العصابة التي سيطرت على الحيّ فأرعبته سرقة وخطفا.

في تلك البقعة المظلمة من الشارع وهي تقف مشدوهة وقد بللها المطر والطين ، تبخرت كل أحلامها وغطست في بحر دموعها فليس للفقير أن يحلم.

كفار قريش في غزة!

أيام السلطة كان الناس يعملون... ويأكلون ويتزاورون، وان شاب حياتهم بعض من فوضى أمنية لم تصل إلى حد الإعدامات والقتل الدموي والتهديد الذي يعيشونه اليوم.

في عهد السلطة سمعوا.... عن الفساد وسمعوا عن السرقات وسمعوا عن تداخلات الأجهزة، ولكن ما لنا وذلك... فنحن نعيش ونتنفس وقوت عيالنا في مأمن.... فما لنا وما يقولون وليكن (حيلهم بينهم) كما يقول المثل.

هذه الأيام يمشي الفرد دون جماعة في الشارع ويخشى كل شيء بدءا من الخشية على نفسه انتهاء بالخشية من تفتيش مليشيات القوة التنفيذية في دماغه وفي دفتر يومياته بل وفي أحلامه.

عندما جرّوا أسعد من ساقيه أمام العامة في السوق، وانهال عليه سدنة المعبد الرباني ضربا بالهراوات الضخمة كسروا ساقه اليمنى وهو يصرخ .... كما لم اسمع في حياتي من قبل، والمصيبة أن هؤلاء الساديين كانوا يجبرون الأطفال على النظر لمشهد التعذيب، ليتعلموا كما يقولون !!

لم يكتف الساديون بكسر ساق أسعد اليمنى... فانهالوا بالهراوات على يسراه وأمام الملأ والأطفال... وكاميرات الجوالات صورت الحدث فموضعت الفيلم إلى جانب مئات الأفلام المقززة الأخرى في مواقع (اليوتيوب) و(الفيس بوك) على شبكة (الانترنت).

في المدينة الكبيرة ، في غزة ، من الأسلم لك ألا تمشي في الشارع لأنه محظور إلا على المنافقين أو أدعياء المقاومة أو مدعي الإسلام من القتلة والساديين أو من الجهلة أنصاف

المتعلمين... هكذا قال لي أبو الباسم من تجار الخضار في المدينة المتعبة، وتابع معي روايته.

داوود لم يأبه بحركة فتح عندما كانت في السلطة في غزة... فهو عامل بسيط يلتقط قوت يومه دون أن يعير أهمية لمتغيرات السياسة الفاسدة كما يراها، أو نفحات الإيمان الخادع وادعاءات الدولة الإسلامية أو الديمقراطية من هذا الطرف السياسي أو ذاك... وذاك هنا هو طرف حماس.

بل وصل الأمر بداوود انه لم يفرق كثيرا في معيشته بين المراحل كلها منذ الاحتلال الصهيوني. وعندما جاء الانقلابيون ودخلوا بيته وفتشوه ودمروا ما فيه ، وسرقوا ما سرقوا تحت بند (الغنائم) لم يفهم... ما يحصل، وظنهم من الجيش الإسرائيلي. ولما علم بحقيقة الأمر رفض أن يصدق ما سمع... حتى بعد أن شتموا زوجته وضربوا بناته وحطموا الشبابيك.

داوود اعتبر ما حصل له من باب الخطأ فهو لم ينتم في حياته لتنظيم سياسي ، وهو من أتباع (الباب الذي تأتيك منه الريح أغلقه واستريح) وامش الحيط الحيط... فلا تحزب لديه ولا يحزنون ، وجُلّ ما قد يربطه بالسياسة أن أذنيه وغصبا عنه تستمعان أحيانا للمذياع أو لشيخ الجامع ذي الصوت الغاضب دوما وهو يشتم الكفار والمرتدين...

وان عرف الكفار بكفار قريش ، فهو لم يفهم كيف لهم أن يظلوا أحياء في غزة منذ عهد الرسول عليه السلام إلى اليوم!! كما انه لم يفهم معنى المرتدين وكان يعتقد بفهمه المتواضع أنهم (المرددون) أي الجوقة الغنائية وراء المطرب فكان لا يستمع بناء على ذلك للأغاني التي يصاحبها المرددون أبدا لأنهم وكفار قريش في غزة سواء كما كان يقول شيخ الجامع.

سار داوود في الشارع ... بحثا عن عمله أو أي عمل ، فرغم العدوان الإسرائيلي الذي أحرق الأخضر واليابس وتحقق النصر! إلا أن أولاده يحتاجون للطعام فخرج من داره بحثا عن الخبز.

أثناء العدوان وعندما ترك العنان لأذنيه سمع الكثير عن التهديدات للإسرائيليين من أبي القعقاع وأبي الصناديد وأبي الحديد.... ولكن عندما وصلوا إلى باب بيته وسط غزة أدرك بحسه الفطري أن أولئك المتحدثين كذابون.... لا سيما بعد أن سمع أنهم خرجوا على الفضائيات ينشدون نشيد ما أسموه النصر الرباني، وهو طوال العدوان لم يرَ أحدا

منهم.
سار داوود في الشارع وهو غارق في خيالاته... في رغباته، لا يسيطر على عقله الا البحث عن الخبز لأولاده ، كان الجو باردا وهو يلبس من الملابس القليل ..... وفي فترة ما بعد المغرب إلى أين يذهب؟ لم يكن يعلم بالتحديد، ولما يمر على انتهاء العدوان عشرة أيام، قضاها في خيمة مع أكوام اللحم الجائعة فاضطر للخروج كالفأر من بيت البخلاء.
داهمته دورية أمنية وأوقفته بتهمة انتهاك حظر التجول ما لم يسمع به إلا في عهد الاحتلال فافترض ثانية أنهم اليهود والعتب على الفهم وربما النظر أيضا.... داوود سار ليلا لأنه زهق من الجلوس في الخيمة بلا عمل ، وملّ من رؤية أولاده يتضورون جوعا فألقت به مليشيات التنفيذية من القتلة الساديين-كما يسميهم أبو الباسم محدثي- في سجن المشتل بعد أن أوسعوه ضربا وشتما واتهامات لم يفهم منها شيئا ، والشيء الوحيد الذي أدركه بحسه البطيء أنهم سمعوه يفكر؟!
بعد عشرين يوما من التعذيب لم يصلوا مع داوود لنتيجة وربما اكتشفوا انه رجل أبله ... ولا يدعي ذلك، لكن داوود متيقن أنهم سمعوه يفكر!! وأدرك أن الكلام والتعبير والتفكير في ظل هيمنة هؤلاء ممنوع بل محرم نصا، ورغم انه لم يفهم العلاقة بين الإسلام والاستبداد إلا انه رآه فيهم مباشرة.
أراد داوود أن يحافظ على عائلته وهو الذي حافظ عليها في كل المراحل... ولما كان الخطر -كما اعتقد- كامنا في رأسه حيث أنهم سمعوه يفكر، ويتساءل... وذلك في عرف المستبدين أدعياء الإسلام ممنوع لا بد أن يقوم بعمل ما وإلا ربما سلطوا عليه كفار قريش الذين يعيشون في غزة وأولئك المرتدين فيحولون حياة عائلته إلى جحيم مقيم.
ماذا لو امتنعت عن السير في الشوارع أولا فلا يستطيعون رؤيتي وبالتالي لا ينظرون للكلام يخرج من رأسي ولا يسمعون مني ما أقول!!
فكان هذا قراره الأول، ثم عزم أن يمنع رأسه من التفكير كليا بأن يغمره في الماء... فنحن لا نسمع السمك لأنه في الماء-كما اعتقد- وما ينطبق على السمك ينطبق علينا... وكلنا خلق الله.
في اليوم الثالث لخروجه من سجن المشتل الفظيع ... وجد الناس جثة داوود على شاطئ بحر غزة حيث انقطع عن دماغه سيل الأفكار... فلا يستطيع أحد من الظلاميين القتلة -كما يسميهم أبوالباسم- أن يرى أو يسمع أفكاره... لقد مات شهيدا... فداء لأسرته.

لا يا (أبو المتقع)!

بشق الأنفس استطاع أبو القعقاع أن ينهي دراسة الثانوية العامة، نصف علامة فقط كانت كفيلة بضمة لركب الناجحين في التوجيهي ، نجح رغم أن والديه كانا فاقدين للأمل في نجاحه نظرا لأنه انتمى لجماعة من (الصيّع) الذين كانوا يقضون أوقاتهم في التسكع في الطرقات ومعاكسة خلق الله ولعب الورق، فلا دراسة ولا يحزنون.

أبو القعقاع رغم انه صبي مراهق إلا انه تسمى بهذا الاسم حتى طغى على اسمه الأصلي فلم يعرف إلا به . كان شابا وسيما حباه الله بجمال الوجه والجسد ، وعمل جاهدا على تنمية جسده من خلال رياضة كمال الأجسام . كان يلبس ما خف من الثياب ، كي يظهر جسده المشدود وعضلاته البارزة.

في المرحلة الثانوية واثر الانقلاب في غزة، شاهد أبو القعقاع (غزوات الأبطال ضد الكفار)، واطلع على الكثير من أفكار التنظيمات الدينية فانتمى لحركة حماس.... التي تركته لشأنه الشخصي، ولم تضغط عليه في ممارساته التي يراها هو وصحبه من مشمولات مرحلة المراهقة، فهم يريدون منه قوته الجسدية وقدرته على البطش فقط ولا شأن لهم بما يفعل كما قال له الشخص الذي أدخله الدائرة الحزبية.

بعد الانتهاء من مرحلة الدراسة الثانوية ، لم يجد أبو القعقاع أي عمل ، فالأعمال في غزة بعد الانقلاب شبه معدومة والمتوفر منها غير مزدهر إلا لمن انخرط بفعالية بوظائف حماس التي لا تعدو التهريب عبر الأنفاق أو المليشيات المسلحة أو فرض الإتاوات على

التجار والناس وترويعهم، ولأن أسرته في حالة فقر مدقع كما هي حال معظم سكان المعسكرات في القطاع المنكوب قام بطرق الأبواب عند أكثر من مسؤول في حكومة حماس الذين قابلوه بالريبة والتشكك أن يكون عاملا أو عميلا في حركة فتح أو أي من التنظيمات (العلمانية والكافرة الأخرى) رغم إشارته لهم أنه منتم لحماس منذ مدة.

الجماعة التي ارتبط بها -بعد النصف الدرجة التي رفعته لمصاف الناجحين- كانت من ذوي اللحى والسراويل الأفغانية فارتبط بهم لحية وسروالاً ، وان لم يستطع أن يتخلص من عادات التسكع ولعب الورق التي بدأ يخفيها عن جماعته الجديدة. زكته الجماعة الجديدة لأحد قيادات حماس المسمى (أبو المتقع) فانضم مقاتلا في المليشيا التابعة له، وان بعد جهد جهيد ورجاءات وحلفان وغداء وسمن بلدي وجميد.

كان أبوالمتقع -حفظه الله ورعاه- ومن الجوع وقاه وجعل صحن السماقية مثواه.... لشدة حبه لهذه الأكلة الشهية كما يردد أتباعه حين ذكر اسمه، كان رغم بطنه الكبير وقصره الملحوظ مقاتلا شرسا-كما يقول أعوانه- لا تأخذه في الحق ضد المرتدين لومة لائم ولا زجرة قائم ، فهو للحق دائم وتعرفونه في الوغى وعند الولائم، وقائد (تتدحدل) حوله عشرات المرافقين المسلحين حتى الأسنان.... إن الكفار والمرتدين بين صفوفنا بغزة في كل مكان هكذا كان يردد دوما أبو المتقع، وعليه يحتاج كل قائد إلى طن من الأسلحة ورتل من السيارات ومجموعة كبيرة من الأحجبة وعدد متزايد من المرتزقة أمثال أبو القعقاع لحمايته.

شيئا فشيئا بدأت علامات التغير الكبير تظهر على الشاب مفتول العضلات أبي القعقاع لا سيما بعد طول مرافقته لأبي المتقع القائد الهصور والأمير المنصور كاسر الأرجل والظهور، إذ بدأ يكيل التهم لوالديه، وبدأ يلقي الأوامر في البيت: التلفزيون ممنوع، وغطاء الوجه فرض واجب حتى على أمه التي جاوزت السبعين من عمرها، وبدأ يمنع أخواته من الخروج من المنزل خوف الرذيلة والسقوط ؟!

دخل ابوالقعقاع في مرحلة اختبار أوّلي إذ طلب منه الأمير أبو المتقع أن يعتقل أحد الكفار من حركة فتح وشدد عليه: إن قاومك ذلك المرتد أطلق النار على ركبتيه..... ففعلِ أبوالقعقاع ذلك دون سؤال أو جواب فالفتوى جاهزة والحمد لله ، ولكنه في المرة الأولى فعلها وهو ما بين غاف وصاح.

كان محمد الكافر من حركة فتح صدِّيق صبا لأبى القعقاع ولم تنفع معه رجاءاته وحلفانه

برأس أمه في ان لا يطلق عليه النار رغم عدم مقاومته للاعتقال، فطاعة أولي الأمر واجب شرعي..... لقد أصبح أبو القعقاع شخصا آخر ...... مشاهد القتل المتكرر والدماء المتناثرة ومئات الجثث التي صاحبت الانقلاب في غزة أو ما اسماه الأمير أبو المتقع (الحسم العسكري) قدت قلب أبي القعقاع من حجر حتى على أمه التي أصبح يشتمها ويتهمها بالفسق لرفضها غطاء الوجه ، وحتى على أخواته بحيث لم يتورع عن ضربهن بقسوة حتى الكبرى هي وخطيبها لمجرد انه جلس معها في البيت وبحضور والديه.

لم يكد أبو القعقاع يتشرب ثقافة التكفير والردة والقتل -المرتبطة بالجهالة والفقر وغسيل الدماغ- (لحكومة رام الله وأذنابها من الخونة والكفار) في غزة حتى صدم بمدى قوة تمسك الأمراء من حماس بالحكم والكرسي بل ومقابلاتهم واحتفائهم بالكفار الأجانب الذين بدأوا يزورون القطاع، بل وحوارهم في القاهرة مع المرتدين من فتح.

لم يستطع أبو القعقاع الشاب الثائر المنتصر لدينه-ورغم نصف العلامة التي أنجحته في الثانوية العامة- لم يستطع أن يفهم الحكم الشرعي بالديمقراطية التي تسمح للآخرين بالحكم دون سلطان الله وتعنى العلمانية في ذات الوقت ، ولكن الأمراء في حماس يستخدمونها، ولم يستطع أن يفهم كيف لا يطبقون الشريعة والحكم بأيديهم !! ولم يستطع أن يفهم كيف يُترَك المرتدون بعد تعذيبهم في السجون ويطلق سراحهم ؟! ولم يستطع أن يفهم كيف يطلب منه أن يمنع المجاهدين من إطلاق النار على اليهود من حدود القطاع؟! كما لم يستطع أن يفهم كيف يصرّح أمراء حماس أنهم الأجدر بالتفاوض في رسائل متتابعة إلى الأمريكان والإسرائيليين؟؟! ولم يغمض له جفن عندما رأى قادة حماس يسلمون على كفار فتح في القاهرة؟ بل ويضحكون معهم دون براء أو استعلاء ودون أن يضعوا الخنجر في صدورهم بدلا من الحوار معهم!!

أبوالقعقاع بعد عدة غزوات متسلسلة انتصر فيها وزمرته ضد الكفار والمرتدين في القطاع؟! انتقل فعليا من حالة التسكع في الشوارع ومغازلة البنات ومعاكسة الناس ولعب الورق إلى حالة من التدين المقيت والتعصب الأعمى الذي وصل لحد (البراء) من المجتمع الجاهلي كافة و(الاستعلاء) عليه ، لقد وصل إلى حالة تجاوزت الكثير مما يراه أمامه من قيادات حماس السياسية التي زلت وفرطت بالقضية وسقطت في شرك السلطة فخانت الإسلام والمسلمين وبدأت تحبو على درب فتح في الديمقراطية والسياسة والعلمانية.

لقد استطاع أن يتجاوز بكل ذلك حالة الفقر والحاجة التي طوقت رقبته عارا أمام أقرانه، واستطاع بعدوانيته ومسلسل القتل الشرعي الذي قام ببطولته مع زمرته أن يتجاوز النصف درجة التي جعلته يعبر بصعوبة من باب السقوط الى باب النجاح في الدنيا والآخرة كما يظن.

عندما أعلن الشيخ الإمام عبد اللطيف آل موسى -كما يلقبه أتباعه- الإمارة الإسلامية في رفح طار قلب ابوالقعقاع معه، وكاد أن ينفجر فرحا، فالنصر الكبير قد اقترب والجنة موعد المؤمنين والخلافة الإسلامية على مرمى حجر.... حتى أتته الأوامر المباشرة من قبل القائد القصير ذي البطن الكبير أبي المتقع شخصيا: اقتل الخنزير أبوالنور ومن طالت لحيته عن قبضة اليد !؟ وألحقت الأوامر بأوامر أخرى :اقتحموا مسجد ابن تيمية واقتلوا من فيه..ولا تأخذكم في الحق لومة لائم؟! أي حق هذا؟ قال أبو القعقاع.

كانت الصدمة كبيرة على أبي القعقاع فلم يستطع أن يفهم كيف يقتل مسلما! وكيف يقتل شيخا وكيف يقتل من أعلن الإمارة الإسلامية التي نسعى لها؟! وكيف يقتحم مسجدا !؟ قتلنا أبناء فتح لأنهم يستأهلون فهم كفرة ومرتدون وخونة، ونهبنا مكاتبهم فهي غنائم لنا؟! وقطعنا أرجل المئات منهم والله لا يردهم !؟ وسجنا من بقي منهم فهم يستحقون، أما أبو النور شيخنا المؤمن وصديقنا وحبيبنا فكيف ذلك؟!

تجمد من هول الحدث وامتقع لونه حتى لاحظ ذلك صحبه ....تلفت يمنة ويسرة حيث يحيط به زملاؤه من مرتزقة الأمير أبوالمتقع (حفظه الله ورعاه) متخذين مواقعهم القتالية .... ونظر للقذائف تدك المسجد الحزين ، ونظر لأشلاء الجثث تتناثر ذات اليمين وذات الشمال بلا سبب أو دليل شرعي...... فامتنع عن الاستجابة للأوامر؟! وصرخ: لا، لا يا أبو المتقع.

يقول تقرير منظمة العفو الدولية (الأمنستي) عن مذبحة رفح التالي:

«أصيب في الأحداث ٢٨٦ منهم ٧٥ من حماس ٤٣ من جند أنصار الله، جميعهم اعتقلوا رغم إصابتهم، ولا يعرف مصيرهم، منهم ٦٦ تم اقتحام منازلهم وإطلاق أعيرة نارية على ركبهم من الخلف من قبل حماس، و١٠٢ أصيبوا جراء القصف العشوائي بقذائف الهاون والـ «آر بي جي» من قبل حماس في المنطقة المحيطة بالاشتباكات». ويضيف «الشرطة منعت الصحافيين أو أي شخص من الاقتراب من أي مستشفى في القطاع لمدة

٤٨ ساعة بعد الاشتباكات»، وأنه: «لم يُسمح بالصلاة على أي من قتلى جند أنصار الله، وسمح فقط لـ ٥ من عائلة كل قتيل بالدفن، كما تم منع إقامة أي بيت عزاء».
ووفق التقرير فإن المسجد « قصف بـ ٢٥ قذيفة هاون»، وأن: «الذين كانوا في سيارات الإسعاف قد خرجوا من مخابئهم بعد أن تم ترتيب اتفاق وساطة عن طريق الصليب الأحمر بتسليم أنفسهم إلا أنهم أعدموا».

ووثق التقرير قائمة غير حصرية بأسماء ٢٨ شخصا قضوا في تلك الأحداث الدامية، وظروف مقتلهم أو «إعدامهم بشكل وحشي». ومنهم من تم إعدامه: « في سيارات الإسعاف الحكومية وسيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر، ومنهم من قضى من المارة، أو نتيجة إطلاق النار العشوائي أو بقذائف الهاون، أو نتيجة الاشتباكات، أو أعدم مباشرة بعد أن سلم نفسه، أو برميه بالرصاص داخل المستشفى، أو بتفجير».

ما كاد أبوالقعقاع المصدوم يتلفظ بكلمة الرفض لأوامر أبو المتقع ملحقا إياها بسيل من الشتائم ضده وضد حماس ، وضد قيادة حماس السياسية التي خانت وكفرت وارتدت وقتلت المؤمنين بغير وجه حق...... حتى كان وجهه الجميل وجسده المشدود قد شوه كما حصل مع أبي النور، وجثمانه في أقل من ثانية أصبح ممددا إلى جانب أصدقائه وأصدقاء زمرته أو ممن كانوا أصدقاء... من جماعة أنصار جند الله، وأفرغت جميع طلقات رشاشه الشخصي في رأسه دون رحمة ما عاد يعرفها هو أو الأمراء كأبي المتقع.

بـلا طعـم !

عندما تبحث عن الراحة.... فلا تدركها ... حتى لو صعدت سلما إلى السماء... أو خرقت الأرض بمثقاب كوني.... عندما تحس أن الفرح مطلب صعب المنال.... وعندما تتكاثف عليك غيوم الأحداث حتى لا تستطيع إن تستبين حقائقها أو تفسر مضامينها أو تفصيلاتها أو تفكفك خيوطها.... تصبح الأشياء بلا طعم.

هل وقعت يوما في جب الإحساس بالقرف أو السقم المرتبط بالضيق الشديد حتى لا تطيق لمسة يد أو نظرة عين أو كشرة أو ابتسامة إلى الدرجة التي لا تطيق فيها الملابس التي تغطي عورتك؟! هكذا كان يحدث نفسه .

في المقهى الصغير على زاوية الشارع قرب المتجر الكبير... كان يجلس... قلقا متوترا حركة مقلتيه لا تهدأ، طلب كوبا من الشاي بالنعناع... وأخذ يدخن سيجارة تلو الأخرى ، يحدق في الدخان المنفوث طويلا ، ويترك للفراغ أن يتسع في عقله حتى طرد كل الأفكار.... وأحيانا كنسها الواحدة تلو الأخرى ....انه يحب هذه اللحظات التي يطرد أو يكنس فيها من دماغه كل أثر لأي شيء واضعا رجلا على رجل ، ورافعا أصبعيه باتجاه فمه لينفث دخاناً كثيراً.... رأى ما بين النفثات صورة جده الأكبر مصحوبا بوالده ، وتراءى له أنه بين الحياة والموت يصارع الأمواج في بحر عظيم غرق فيه مع أحزانه المتكالبة.

كلاليب ، كماشات ، شواكيش ، سكاكين كلها تنهش في جسده الضئيل، يتقلص ويتكور كلما أحس بالضيق أو الألم حتى تظنه مخدة أو كومة قش.... السكري يقتل فيه متعة

الحياة حيث لا يستطيع أن يستطعم بأي امرأة أو طعام ، فالأرز ممنوع واللحم ممنوع والحلويات ممنوعة والنساء ممنوعات، فمن أين يأتي بالفرح ومن أين له بالراحة.

انتصب واقفا بعد أن غادر الطاولة الصغيرة حيث أعاد الكرسي الى حضنها بحركة رتيبة ، تفرّس واقفا في وجوه رواد المقهى ومازالت مقلتاه تتأرجحان.... نساء يتضاحكن وينفثن أنفاس (النارجيلة)، ورجال ببزّات رسمية وآخرون بقمصان أنيقة، وفي تلك الطاولة البعيدة في الزاوية كانت مجموعة من الشباب تمارس متعة النميمة والنكت والضحك بصوت عال.

يا لهم من أناس سعداء ، ويا لهم من رجال ونساء يستمتعون بأقصى ذرّات الحياة.... النابضة في وجوههم.... لقد أتلف القلق والتفكير أعصابي حتى أصبح إمساك السيجارة معاناة وأصبح الجلوس براحة يستتبعه ألم فظيع .... يا لألم الظهر اللعين لا يسمح لك بالنوم، ويمنعك من الجلوس ولا يهدأ .... خاصة حينما ترغب في الراحة.

انطلق مشيا على قدميه إلى محل الحلويات المجاور.... يداه وراء ظهره وعيناه تدوران بين الشوارع والجدران وموطئ قدميه.... سحب كرسيا وجلس... فلما تقدم منه النادل.... طلب كنافة وبقلاوة وهريسة معا.... وضع النادل طبقين أمامه مع كوب من الماء، فتأمل ثم تأمل الحلوى اللذيذة وتلمظ.... ثم أشعل سيجارة وبدأ يدخن.... لا تأتيه الأفكار والهواجس أو الذكريات إلا مع دخان السجائر حيث يظهر له جده وأبوه بأكفهم المفتوحة وبياض وجوههم الذي يريح النفس ويفجر الدموع... وتغيب عن خاطره حوادث الأمس.... أحيانا يكنس أفكاره بسهولة وفي أحايين أخرى يطردها بصعوبة وعنف مستخدما ضدها الفؤوس والشواكيش.

استدعاء الذاكرة في حالات القلق ارتباط باللاوعي... فأحيانا تستنفد مخزون الفرح المنسي منذ البعيد، وأحيانا تتكاثف لحظات الحزن حتى يصبح ألم الظهر وقهر السكري والكحة العتيدة أكثر متعة من صحن الحلوى.

ترك حلواه.... ودفع الثمن، وغادر المحل.... في الهواء الطلق يستعيد حيويته. لكن كمية الأكسجين التي هبطت إلى رئتيه حينها كانت أكبر من قدرة احتماله، وكأنما البحر بهيبته وامتلائه يخترق صدره الصغير ... لم يستطع التنفس للحظات مرعبة...استعاد بعدها طراوته واسترد المفقود من أنفاسه، ماذا يحصل؟ حدّث نفسه هل أنا على وشك الموت أم ماذا؟ كحة متواصلة ثم هدوء... ربنا ستر، الحمد لله.

يبحث عن البهجة .... في زوايا الشوارع وعلى عتبات أفكاره وفي جوارير ذاكرته وفي وجوه الأطفال ومتاهات النساء وفي عناوين الأزقة وألوان الأشجار ولافتات المحلات ومواء القطط ومن ضجيج السيارات ووقع أقدام المشاة..... يبحث عن طعم لأي فعل... للعمل، للنوم، للأكل، للصراخ، للكلام... فلا يجد.....

تسمر أمام لوحة كبيرة في الجزيرة الفاصلة بين شارعين مكتوب عليها: أذكروا الله ، قال: لا اله إلا الله ، أما كان الأجدر أن يكتبوا: أذكروا الله وحافظوا على نظافة شوارعكم.... أوأذكروا الله ولا تلقوا بالزجاجات الفارغة بين أحضان الزهور.... أو اذكروا الله وقولوا قولا حسنا لجيرانكم، أواذكروا الله ولا تشخبطوا على الجدران... أو اذكروا الله وبروا والديكم...

في السنوات الأولى من حياته سعى سعيا حثيثا للمال ولابأس في أي شخص أن يحسّن من وضعه أليس كذلك؟ كما حدّث نفسه وحدثتني نفسي الحسودة أيضا... فلقد نشأ في بيئة تعج بالمشاكل والأزمات والصياح ، باب مفتوح للرياح لا يغلق أبدا هكذا كان بيتهم، وهكذا عاش... أمه لا تكف عن الصراخ والزعيق وأبوه رجل مسالم يتقي زعيق زوجته بالدعاء وأحيانا بالبكاء والنحيب.

منحه الله عائلة لم تعرف الراحة ولم تجعله يحس بمعنى الراحة أو طعم الفرح... ولربما كانت راحتها أي عائلته في التنفيس عن فقرها وقهرها عبر المشاكل أو إقلاق راحة الآخرين؟ عجيب ولكن ربما؟ لقد عاشت أسرته في حياة هي القلق بعينه.

أخوة يحبون المشاكل إلى حد الإدمان ولا إدمان الكوكايين، حيث لا عمل لهم إلا ما ندر من الفترات ثم العودة للاعمل ثانية.... وان لم تأتِ المشاكل لإخوانه يحفرون بأظفارهم بقوة لإخراجها من تحت التراب... يمسكون بالمشكلة كما رغيف الخبز فيقبلونه أو يقبلونها وجها وقفا ويضحكون وهات يا مآسي... أخوات بلا زواج وأقرباء لا يملوّن علك الكلام ضد بعضهم البعض.

في تنقله اليومي و اللانهائي بين شوارع المدينة وأزقتها، بضيقها وامتدادها، نازلا سهول المدينة وصاعدا هضابها، بالمألوف منها والمستجد... كان يتذكر المدرسة الابتدائية، وسلسلة المدرسين الذين مروا عليه، ويتذكر حوائط الجامعة.... وبالمناسبة فإن له عشقا عجيبا للحوائط يحب فيها المرتفع والمنخفض المستقيم والذي يلتف، ذا الملمس الناعم وذاك الخشن... إلى اليوم الذي زرع فيه الاحتلال الحائط الكالح والكبير الذي يدور

ويلتف كالثعبان الضخم ليسد الهواء في وجهه ووجه أمه لا إله إلا الله كلها محمد وعيسى رسل الله، ويقلص من نظراته ويحد منها... ويدوس على أحلامه بالرحابة.... كان هذا اليوم يوما مرعبا في مدينة بيت لحم.

يتذكر أمه بنظراتها الغاضبة أبدا، ووالده المسكين، وحرقة قلبه على عائلة لا تهدأ.... يطرد هذه الذكريات وإن بصعوبة لتحل محلها صور مطاعم الفلافل وشرائح اللحم المشوية، ووجوه الزميلات المغردة في كلية التجارة ، والزملاء في مجلس الطلبة ، وعندما يصل إلى الكنيسة الشامخة وسط المدينة كانت ذكريات التنقل بين السياح الأجانب والضحك عليهم وسرقة أمتعتهم ثم إعادتها هي كل ما يبث فيه طعم الراحة، بعد سنوات طوال.

اعتاد الهروب من البيت، سواء بيت أهله فيما مضى أوبيته الحالي، الآن... حيث الفراغ القاتل.... فلا زوجة ولا أولاد، بل فراغ مستمر... فزوجته ودعته قبل سنوات، ولم تمهله الأيام أن ينجب أنيسا.... طعم مفقود وفراغ قاتل حتى بعد أن منّ الله عليه بالمال، الوفير.... صفقات صغيرة في مجال البناء والمقاولات لحقتها أخرى حتى نظر إلى نفسه بعد عشرين عاما بلا ولد ولا فروع ، ولكن بمال وفير.

ما زالت أمه وهي في السبعين من عمرها تشتم وتصرخ، ووالده يتقي طلقاتها بيديه وينكمش على ذاته... وأخواته العوانس يقتلن الوقت بالكلام البليد والسخيف وأحيانا المقرف ..... الآن، حقق ما يريد.... شركة لها اسم ومكانة يحسد عليها ومال وفير، بحيث لم يتبقَ له شيء يسعى له..... لقد فقد الهدف واستطالت في عينيه العبرات.

أجزاء من روحه تسقط يوميا من فوق سريره عند كل صباح وأشلاء من وعيه تنفجر يوميا حتى أصبح جثة تحركها الأقدار.

أغدق على والديه وأهله فانتقلت حياتهم من فقر مدقع إلى بحبوحة، ظانا أن اختلاف الحال يريح البال ويكف السؤال ويدفن المشاكل في الرمال... ولكن هيهات هيهات ، ظلت الشكوى والقلق هو هو أو هي هي .... لم تنفع فيهم المتغيرات المادية ولم تجدد حياتهم النقلة الكبيرة، فطعم الحياة لديهم على ما يبدو في اختلاق المشاكل؟! ..... لماذا الحياة إذن؟.... يمص شفتيه علّه يستقطر منهما رحيقا ولكن لا طعم.

مازال يدور حول ذاته ماسحا بعينيه ورجليه طرقات المدينة وهواءها، ومتجاوزا الحائط المرعب الكبير، يسير... لا يهدأ ولا يكلّ.... وعلى عتبة بيتهم القديم جلس.... وفي

السيجارة الأخيرة في علبته أخذ نفسا طويلا وأحس بالطعم ... ووضع رأسه الثقيل على الحائط المسود... وكأنه غفا... ولربما نسي آلامه ونام.

الفهرس

الصفحة

١) صن تسو والقائد المعقد .... (٧)

٢) ألا تعلم من هذا؟ .... (١١)

٣) أبو العامود والمدير العام .... (١٥)

٤) كيف تصنع قائداً فاشلاً ؟ .... (١٩)

٥) أبواب وشرفة. .... (٢٥)

٦) لا فرق! .... (٣١)

٧) البعير يحارب الشمس! .... (٣٥)

٨) مدينة الأقدام السعيدة .... (٣٩)

٩) الصوف والحرير وأثداء البقر! .... (٤٣)

١٠) دموع في الرمال ! .... (٤٩)

١١) المراسل الثوري .... (٥٣)

١٢) وبدأ يتقمص دور الزعيم! .... (٥٧)

١٣) ليس للفقير أن يحلم! .... (٦١)

١٤) كفار قريش في غزة! .... (٦٥)

١٥) لا يا(أبو المتقع)! .... (٦٩)

١٦) بلا طعم ! .... (٧٥)